الجزء الثاني

د. موسى أبو مرزوق

في العمق

قراءة في الفكر الحركي والسياسي

إعداد: د. بلال خليل ياسين

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

الفصل الأول

الإنسانية المفقودة

الإنسانية المفقودة

أولاً: قسوة دافئة:

"إنَّ الإجابة الوحيدة على الهزيمة هي الانتصار"

(ونستون تشرشل)

لا شيء يجذب انتباه الإنسان بقدر الحكاية التي ينطوي في تفاصيلها الكثير من التناقضات العجيبة، والتحديات الجسيمة، اللتيْن تجعلان من صاحبها نموذجاً يُحتذى به في كثير من الأمور الإيجابية، خصوصاً أنَّ معظم حكايات العظماء تنبثق من رحم المعاناة التي تدفعك نحو شهقة الاستعجاب أو صفارة الاستغراب.

ولك أن تتأمل هذه القصة التي تبدأ من ميلاد في خيمة اللجوء، وطفولة في ظلّ اعتداءات متتالية، وانتكاسات متعاقبة، وعائلة كبيرة العدد، وفقر مدقع، وقسوة شديدة في جميع مناحي الحياة، وتنتهي بإنسان يحمل درجة الدكتوراه في الهندسة الصناعية من الولايات المتحدة الأمريكية، ويؤسس العديد من المؤسسات الاجتماعية، والمنظمات السياسية، وغيرها من التجمعات والتحالفات التي تسعى لتحرير الإنسان الفلسطيني من سطوة الاحتلال وقهره المستمر.

بالتأكيد نحن أمام شخصية عصامية تستحق أن نقف على تفاصيل تجربتها التي استطاعت أن تنتزع هذه النتائج الإيجابية بتميز واقتدار، وتشق طريقها النضالي دون تردد أو اعتذار، إننا أمام تجربة الدكتور موسى محمد أبو مرزوق، رئيس المكتب السياسي الأول لحركة المقاومة الإسلامية (حماس).

بعد أن هُجّرت عائلته من قرية "يبنا"[1] بثلاثة سنوات تقريباً، ولد الطفل موسى بمدينة رفح الحدودية جنوب قطاع غزة في 1951/2/9، نشأ في خيمة اللجوء

[1] تقع قرية يبنا جنوب فلسطين المحتلة، بلغ تعدادها السكاني سنة 1948 نحو 6,287 نسمة، وتُعد من القرى النادرة التي يزور علماء الأزهر الشريف مساجدها بشكل مستمر؛ لذلك عُرفت بتدين أهلها وحُسن أخلاقهم، وبرز فيها مشايخ وعلماء من آل العطار، وآل الهمص، وآل أبو هاشم، كما عرفت بمشاركة شباب القرية ورجالها في معارك فلسطين المتعددة.

وسط أسرة تتجاوز العشرة أفراد، تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي بمدارس وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا) The United Nations Relief and Works Agency for Palestine Refugees (UNRWA)، ثم انتقل إلى مدرسة بئر السبع الثانوية.

بعد هزيمة 1967 تمرد موسى على وجود الاحتلال الصهيوني في قطاع غزة، السبب الذي دفعه أن يدرس مرحلة الحادي عشر في المنزل رفضاً للمحتل وسلطته غير القانونية، نجح في الاختبارات النهائية بتفوق، ثم سافر إلى جمهورية مصر العربية لدراسة الثانوية العامة.

التحق موسى في الفرع العلمي بمدرسة شبين الكوم بمحافظة المنوفية، وبعد شهرين من الدراسة المنتظمة فضل الدراسة الذاتية في المنزل؛ لأنه التحق في صفوف المدرسة متأخراً نتيجة السفر وتعقيداته الكبيرة، وفي سنة 1969 حصل على شهادة الثانوية العامة بتميز، الأمر الذي مكنه من التسجيل في كلية الهندسة في جامعة المنوفية حيث يُقيم أخوه جمعة.

وبعد فترة قصيرة استطاع أن ينتقل من مدرسة شبين الكوم إلى جامعة حلوان؛ ليسكن مع أخته حلمية التي كانت تدرس الطب في جامعة الأزهر، وبناء عليه فقد حصل على بكالوريوس في الهندسة الميكانيكية من جامعة حلوان سنة 1975، ثم سافر إلى دولة الإمارات العربية المتحدة، حيث عمل في محطة الماء والكهرباء في أبو ظبي سنة 1977، ثم مديراً لمصنع ألومنيوم بالشارقة سنة 1978، ثم مهندساً في شركة بترول أبو ظبي الوطنية خلال الفترة 1979–1981.

في نهاية سنة 1981 سافر موسى إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإكمال دراسته العليا بجامعة كولورادو، فحصل على درجة الماجستير في إدارة الإنشاءات سنة 1984، وبعدها حصل على درجة الدكتوراه في الهندسة الصناعية سنة 1992 من جامعة لويزيانا.

هذه مسيرة د. موسى العلمية التي انطلقت من مخيم اللجوء، وقد لا يُدرك حقيقتها الكثيرون من القرّاء، بالطبع قد يكون أحدهم شكّل صورة نظرية عن

أحواله القاسية، أو اطلع على بعض التجارب التي ضج العالم المتحضر بقصصها المؤثرة، لكنه لن يصل للحقيقة ذاتها إلا إذا عاش التجربة بنفسه. لك أن تتخيل برد الشتاء وقرسه، وحرّ الصيف وشدته، أو سوء التغذية وضررها، أو قُرب الخيام واكتظاظها، أو صور الفقر وبشاعته، أو غطرسة المحتل وقسوته، لكنك لن تُدرك ألم النفس وأغوارها، وكسر الإرادة وعجزها، وسلب الحياة وجمالها؛ لأنَّ الأخيرة تتعلق بالإحساس الذاتي، والشعور النفسي.

وبالرغم من قسوة المخيم، وشظف العيش، إلا أنَّ الفلسطينيين صنعوا صورة مغايرة عن تلك التي أرادها العدو الغاصب؛ فقد أراد شعباً مسلوب الإرادة بجهله، منزوع الثقة بضعفه، تافه الأحلام بعجزه، ضيق الحياة بموته، لا يعرف سوى قوت يومه.

هذه القسوة التي أرادها المحتل الصهيوني لأبو مرزوق وأقرانه لم تحقق أهدافها المرجوة؛ لكنها انعكست إلى حضن دافئ تجمع الفلسطينيين على التكافل الاجتماعي وجماله، وطلب العلم وعطائه، ونور الحق وقوته، وحب الحياة ورحابتها، وصلابة التحدي وروعة الإنجاز، فأحيت القضية الفلسطينية في نفوس الأحرار، وأشعلت الحق في قلوب الأبطال.

ثانياً: ذاكرة الطفولة:

"العلم في الصغر كالنقش في الحجر"

(الحسن البصري)

عندما تُصغي للدكتور أبو مرزوق وهو يسرد مواقف طفولته المتعددة تُدرك حجم الذاكرة التي تتنقل بين حروف اللغة، دون أن تتلعثم في وصف المشاهد المؤلمة التي رأتها عيناه، وضجت من سماعها أذناه، كما ستدرك في المقابل حجم الأمل الذي نطق من بين المعاناة التي شقتها النفس في أغوار شعورها.

لم ينس صاحب البدلة الأنيقة، والابتسامة الرقيقة، يوم أن دخل المدرسة مع أقرانه اللاجئين، حيث الفقر الذي يدفع الطالب في سنّ السادسة أن يرتدي ملابس

أخيه الأكبر بعد تعديلات معينة لتصبح مناسبة لحجمه، أو أن يحمل شنطة مكتوب عليها "ليس للبيع أو المبادلة" مع أنها صُنعت من كيس الطحين الذي غُسل وخُيطَ ليصبح جاهزاً لحمل الكتب والدفاتر، أو أن يزيح الكراسي من أجل اتقاء مياه الأمطار التي تتسلل من بين فتحات القرميد، أو أن يجلس في صف الدراسة وهو يرتجف برداً، وتتشقق أصابعه دماً، حتى تأتي عبوة التموين التي تحمل في طياتها عدداً من الكفات اليدوية التي تقي من حالفه الحظ من برد الشتاء.

لم يغب عن ذهن أبو مرزوق جنود الاحتلال وهم يتقافزون فرحاً بعد سرقة حاجيات الناس وتنغيص حياتهم البسيطة، لم يُخطئ إدراكه في تمييز القتل العشوائي بحق شباب فلسطين ورجالها الميامين، لم يغب عن بصره مجزرة 1956 التي ارتكبها الاحتلال الصهيوني بحق أهالي مدينتي رفح وخان يونس؛ لذلك اسمح لي أن أنقل لك روايته التي نقشتها الطفولة المبكرة في عقله، ووثقها التاريخ الحديث لنا.

يقول أبو مرزوق:

الأحداث الصادمة لهذا الطفل أو ذاك هي التي تبقى بارزة في ذاكرته، فثمة فرق بينها وبين سيرة الحياة، هناك من يدعي أنه يعرف كل شيء عن طفولته الجميلة، قد تكون الحقيقة في ذلك أن والدته قصت عليه قصته التي يحفظها حيناً، ويُخطئ في سرد بعض جوانبها حيناً آخر، لكن الأحداث الصادمة يبقى تأثيرها في الطفل طوال تاريخه، وقد تُسبب له مشاكل نفسية في المستقبل.

كنتُ أحد الأطفال الذين شاهدوا أحداث 1956، لقد كانت قاسية جداً على الشعب الفلسطيني، المشكلة في ذلك الوقت أنه لم يكن هناك تسجيل للتاريخ، ولا فضائيات، ولا وكالات عابرة للحدود كما في الوقت الحاضر؛ حتى تسجل اللقطات البشعة، وترصد رائحة الدماء المتناثرة التي ارتكبها الاحتلال الصهيوني بحق سكان مدينتي رفح وخان يونس.

يمكن أن تكون مجزرة خان يونس أبشع من مجزرة رفح، لكن كوني من مدينة رفح فقد شاهدت هذه المجازر بطريقة بشعة جداً، رأيت الجندي الإسرائيلي

يقتحم البيوت عنوة—طبيعي أن يضع اللاجئون احتياجات مطبخهم على الأرض—فيدفع السُّكر على الطحين على السمنة، إيذاءً للأسرة، وليس تفتيشاً عن شيء. شاهدت عمليات القتل التي طالت في معظمها الشباب من أعمار 16 عاماً فما فوق.

كان المحتلون الإسرائيليون يُعاقبون الفلسطينيين بطريقة همجية، لا يترددون في اختيار أي شخص للعقاب، والقتل عنوانه في كثير من الأحيان، فكان عدد القتلى من الضخامة ما لا يُحصى ولا يُعد. وأبشع مشهد ما زلتُ أذكره عندما انتشلوا معظم الجثث التي تمّ قتلها، فرفعوها في عربية ديزل "تْرَكْ" [سيارة شحن Truck] كبير، ووضعوا الجثث كلها في رمال البحر لدفنها، في منطقة بين المخيمات والبحر، بالقرب من أراضي زعرب، لقد دفنوا جميع الشهداء مرة واحدة في مقبرة جماعية. ما زلتُ أذكر الشاحنة وهي تخط دماء الشهداء سيلاً على الطريق، وهم يُسارعون في التخلص من أصحابها حتى يزيلوا آثار الجريمة.

لا شك أن أحداث 1956 قاسية جداً بالنسبة لطفل صغير، أعتقد أن عدد القتلى والشهداء أكثر مما جرى في حرب 1967، وأكثر مما جرى في حرب 2009/2008، لكن لم يكن هناك من يُصور المشهد ويوثقه، ولو ذهبت إلى كبار السن من الناس في خان يونس ورفح، ستجد كثيراً من القصص المروعة المتعلقة بالقتل، وصوره البشعة.[2]

هذه الذكريات التي تركها الاحتلال الصهيوني في أذهان أطفال فلسطين وشبابها لم تمنعهم من أن يروا الحياة بنورها الجميل، وأملها الكبير، ولم تنل من عزيمتهم، أو تكسر من إرادتهم، بل شكلت وقوداً دافعاً نحو العلم والعطاء والتضحية والفداء، وهذا ما ستراه بشكل واضح عندما يحدثك أبو مرزوق عن قريته يبنا التي زارها بصحبة والده المرحوم. ستجد ذكريات الزيارة ماثلة أمام بيته الذي سرقته عائلة يهودية جاءت من اليمن لتتنعم بحق غيرها، وتسرق تاريخ القرية واسمها العريق.

[2] انظر: مقابلة مركز التأريخ والتوثيق الفلسطيني مع الدكتور موسى أبو مرزوق، القاهرة، تشرين الأول/ أكتوبر 2012.

حوّل الإسرائيليون قبراً يعود لعالم من آل العطار إلى قبر حاخام يهودي، يطوفون حوله، ويقرأون التوراة، وسرقوا اسم القرية التي أطلقوا عليها "يفنا"، وهذا ليس غريباً على من سرق تاريخ فلسطين كلها وحوّل اسمها إلى "إسرائيل".

ستجد الأمل في عيون أبو مرزوق عندما يسرد لك تاريخ قريته التي تميزت بالعلم والعلماء، والتضحية والفداء، فقد عُرفت بالتدين الجميل، والالتزام الرائع، جراء استقبالهم الكريم لعلماء الأزهر الشريف، والحرص على الاستفادة من علمهم الوفير، والاسترشاد برأيهم السديد، وقد شهد مسجد الهدى في مخيم الهجرة على تدينهم، لا سيّما وأنَّ أغلب رواده كانوا من قرية يبنا، كما شارك شباب قريته بمعارك فلسطين كلها، ولم يتخلفوا يوماً عن واجب الوطن.

ثالثاً: الفاكهة المحرمة:

"من السهل أن يكون لديك مبادئ عندما تكون تغذيتك جيدة"
(مارك توين)

لا تنقضي تجارب الإنسان ومواقفه المتنوعة طالما أنَّه في حركة مستمرة، وعمل دؤوب، غير أن المواقف الأولى من حياته تحجز طابعاً خاصاً في ذاكرته؛ لأنها تُنقش في خلايا الدماغ حفراً، وتنثر فوق ذكراها الابتسامات العابرات، بعد أن كانت غُصةً في حلق بعضهم، أو جمالاً مُنساباً عند آخرين.

وفي هذا السياق يذكر أبو مرزوق موقفين طريفين حدثا معه في أثناء أول سفر في حياته، ولم يكن حينها قد تجاوز الـ 18 من عمره، فقد سافر من غزة إلى الأردن سنة 1969 حتى يُكمل دراسته الثانوية في مصر، إلا أنه مكث شهراً في الأردن عند أخيه محمود، الضابط في جيش التحرير الفلسطيني، وفي أثناء هذه المدة زار مركز الإخوان المسلمين في عمّان، وبعض الشخصيات العامة، وتعرف على فكرها وبعضٍ من أنشطتها. ومن أبرز الأماكن التي زارها مواقع المقاومة الفلسطينية

على حدود فلسطين المحتلة في منطقتي السلط ووادي موسى، فقد كان شباب الثورة الفلسطينية يرابطون هناك، ويشنون هجمات قتالية مختلفة على مواقع العدو الصهيوني.

في إحدى الزيارات جلس موسى مع أخيه محمود ومن معه من الفدائيين في مدينة السلط، وإذ بأحدهم يجلب وعاءً كبيراً مليء بالفواكه الصيفية: التين والعنب والصبر وغيرها، وقبل أن تمتد يد أبو مرزوق ليشاركهم لذة الأكل سألهم عن مصدر الفواكه؟ فأجابوا: "من الكرم الذي بجوارنا". فقال: "هل اشتريتموه من صاحب الكرم؟" قالوا: "لا!" فقال: "هل استأذنتم من صاحب الكرم لتأكلوا من ثماره؟" فقالوا: "لماذا نستأذن!" فأدرك أبو مرزوق أن الفاكهة اغتصبت من أرضها عُنوة، فامتنع عن تناولها، وأخذ يُحدثهم عن الحلال والحرام، مما سبب لهم استغراباً كبيراً؛ لأنهم لم يسمعوا من قبل عن تلك المعاني والأفكار التي يُحدثهم بها الشاب الصغير، ولم يروا شخصاً يُصر على مبادئه التي انبثقت من تعاليم الدين الإسلامي الحنيف كالذي صدر عن أبو مرزوق في حينه، فكانت الصدمة المتبادلة سيدة الموقف.

أما الموقف الثاني فهو متعلق بمحرم آخر، لكنه صار بطريقة الخدعة البريئة، فعندما حزم أبو مرزوق أمتعته ليسافر من الأردن إلى مصر للدراسة، قال له أحد الضباط من زملاء أخيه محمود، أتريد أن تذهب إلى مصر؟ فأجابه: "صحيح". فقال له: "هل لديك مشكلة في أن تأخذ معك زجاجتين من زيت الزيتون لأحد أصدقائي هناك؟" فأجابه: "على الرحب والسعة". فقال له: "سلمهم باليد". وفعلاً اصطحب أبو مرزوق الزجاجتين معه، وعند وصوله مصر استقبله أحد الأشخاص على باب المطار، وأخذ أمانته وانصرف، أما الغريب في القصة أن أبو مرزوق علم بعد 17 عاماً من الحادثة أن الذي كان بحوزته ليس زيتوناً، وإنما خمراً، فتألم لذلك ألماً شديداً، إذ أنه لم ير الخمر في حياته، ولم يتعرف على شكله إلا في منتصف الثمانينيات في مطار البحرين.

رابعاً: المسؤولية المفقودة:

"ما الفائدة من الركض إذا لم يكن في الاتجاه الصحيح؟"

(مثل ألماني)

لا أحب أن أكون غامضاً حتى أُعبر عن معنى الفكرة التي أسعى لمناقشتها؛ لأنني لا أرى في الغموض إلا شيئاً من الترف الذي قد يُخطئ المعنى في بعض الأحيان، وهذا يدفعنا نحو البساطة التي لا تخلو من عمق الفكرة وأهميتها.

فكرتنا تدور في فلك المسؤوليات النادرة، والأولويات الغائبة، والأخطاء المتراكمة، وحول الذات ومعرفة أسرارها، والنفس وسبر أغوارها، والحاجة وإدراك قدرها، والطريق وزوايا اتجاهاته، حتى نستطيع أن نركض في الاتجاه الصحيح.

قبل هزيمة 1967 كان أبو مرزوق ورفاقه يهتفون للقائد القومي جمال عبد الناصر—رئيس جمهورية مصر العربية الأسبق—بهتاف الحب، وأمل التحرير، ومستقبل القوة، إلا أن هذا الهتاف لم يدم طويلاً نظراً لما حلَّ بثلاث دول اجتمعت على قتال جيش صغير احتل على إثرها بقية فلسطين وضواحيها.

لقد أظهرت نتائج الحرب ضعفاً مركباً في قيادة الجيوش العربية،[3] التي امتلكت من الإمكانات البشرية والمادية ما يمكنها من الانتصار على ثلاثة أضعاف قوة الجيش الصهيوني آنذاك، لكنها إرادة القتال، التي تفرض معادلات لا تنطق إلا بنتائج واقعية.

كان بإمكان أبو مرزوق أن ينكسر أمام هذه الهزيمة الكبيرة، كما حدث مع الكثير من الشباب الذين راهنوا على عبد الناصر وقوميته المشهودة، وخصوصاً

[3] أدت هزيمة حزيران/ يونيو 1967 إلى مقتل ما بين 15–25 ألف جندي ومواطن عربي من الدول العربية، مصر، وسورية، والأردن، مقابل 800 مقاتل من "إسرائيل"، وتدمير 70–80% من العتاد الحربي في الدول العربية مقابل 2–5% في "إسرائيل"، إلى جانب تفاوت مشابه في عدد الجرحى والأسرى؛ كما كان من نتائجها صدور قرار مجلس الأمن الدولي رقم 242، وانعقاد قمة اللاءات الثلاثة العربية في الخرطوم، وتهجير معظم سكان مدن قناة السويس، وكذلك تهجير معظم مدنيي محافظة القنيطرة في سورية، وتهجير عشرات الآلاف من الفلسطينيين من الضفة الغربية بما فيها محو قرى بأكملها، وفتح باب الاستيطان في شرقي القدس والضفة الغربية.

بعد أن رأوا القوات المصرية تأتي بملابس الفلاحين—جنود احتياط —حتى تقاتل المحتل الصهيوني دون تموين، بالإضافة إلى السلاح، وبالتالي لم يكن غريباً على عينه التي ترقب هذه المجموعات وهي تُقتل في المدارس التي تمّ إرسالهم إليها، ولم تكن مفاجأة كبيرة عندما رأى بعض مجموعات من الجيش المصري الرسمي تنسحب نحو المناطق الجنوبية بملابس مدنية لا تليق بجيش التحرير.

كان بإمكان أبو مرزوق أن ينطوي على دراسته الذاتية، ويبحث عن طرق تحسين أحواله المعيشية دون أن يُتعب نفسه بتفاصيل أثبتت التجربة أن جيش الاحتلال بالتعاون مع الأمريكان انتصر على ثلاثة جيوش مجتمعة، غير أنه أدرك أن العلة لا تكمن في النتيجة التي آلت إليها الأمور، وإنما في طبيعة المدخلات التي كانت سبباً في ذلك، فأخذ يبحث عن ذاته التي أُرهقت بالشعارات العامة، ويُنقب عن البوصلة الصحيحة التي قد تُحدث تغييراً في الأوضاع الكارثية التي وصلت لها القضية الفلسطينية.

كان هذا البحث ذاتياً، دون توجيه من أحد؛ فالأجواء السائدة في تلك المرحلة عكست قوة القومية العربية، والتجمعات اليسارية، ولم يكن توجه إسلامي لأحد إلا بعض الأفراد غير المعروفين نتيجة الحظر الأمني، وهذا له دلالات مهمة، خصوصاً ونحن نتحدث عن شاب في الـ 16 من عمره في تلك المرحلة.

انكب أبو مرزوق ورفاقه[4] على قراءة الكتب التاريخية والدينية والثقافية والسياسية والاقتصادية، وجابوا قطاع غزة بحثاً عن حكيم هنا، وصاحب تجربة هناك،[5] حتى اهتدوا إلى فكر جماعة الإخوان المسلمين، فأخذوا ينهلون من كتب مفكريها المُخبأة في ركن بيت الأخ محمود محسن بسرية تامة، نظراً للظروف الأمنية الصعبة المحيطة بالإخوان آنذاك.

[4] من أبرز رفاقه في تلك المرحلة: جمال أبو هاشم، وأحمد عودة، واللواء حمودة جروان، ود. فتحي الشقاقي، ود. خليل الشقاقي، وخميس أبو ندى، والشيخ إبراهيم أبو مر، ود. علي شكشك، ود. محمد محسن، ود. أحمد يوسف، وعيسى الأسمر، وغيرهم.

[5] من أبرز الشخصيات البارزة التي حرص أبو مرزوق ورفاقه بالالتقاء بهم: الشيخ محمود محسن، وحسين المصري، ورجب العطار، ولطفي الهمص، ومحمد النجار، والشيخ أحمد ياسين، والشيخ سليم شراب، ومحمد الغرابلي.

من جملة الكتب التي تركت أثراً جميلاً في تفكير أبو مرزوق أجزاء من تفسير سيد قطب للقرآن الكريم "في ظلال القرآن"، وكتابه "معالم في الطريق"، وكتابات "سيد سابق" في فقه السنة، وكتب السيرة النبوية، و"إحياء علوم الدين" للإمام الغزالي، كما أُعجب بفكر الشيخين أحمد ياسين، ومحمد الغرابلي اللَذْين تميزا بتجربة التنظيم، والعمل الجماعي.

دفعت هذه الكتب واللقاءات العملية أبو مرزوق وأقرانه نحو تشكيل مجموعات تربوية بقيادة الأخ محمود محسن، بهدف إعداد شخصية المسلم الغيور على دينه، الواعي لقضيته، المضحي في سبيل دينه ووطنه، فكان الفهم الوسطي للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تتسع في عقولهم، والعبادة المميزة في حفظ القرآن الكريم وتلاوته تتغنى على ألسنتهم، ومعالم أخلاق المسلم مع أخيه المسلم وغير المسلم تتبلور في سلوكهم، حتى سافر أبو مرزوق إلى مصر لاستكمال دراسته، وقد ترك خلفه أكثر من عشرين شاباً أشرف على تربيتهم طيلة الفترة السابقة.

هذا الشاغر في نفوس الشباب الفلسطيني ملأه الفكر الإسلامي، وسبر أغواره بالثقة التي تبددت على عتبات نكسة 1967، ومن هنا انطلق أبو مرزوق إلى مصر بهويته الجديدة، التي رسمت معالم شخصية الإنسان المسؤول، والقائد المبادر، الذي لا يتردد في كسب الآخرين من أجل استعادة كرامة الإنسان، وتحرير الأوطان.

خامساً: ديناميكية العطاء:

"في الحياة أمامك خياران، إما أن تملأ العالم ضجيجاً بدون عمل، أو تملأه تأثيراً بدون ضجيج"

(آرثر شوبنهاور)

عندما كان أبو مرزوق طالباً في مرحلة البكالوريوس في مصر خلال الفترة 1969–1975 لم يتوانَ لحظة في أن يُنفق وقته وجهده في العمل الدعوي والتنظيمي؛ لأنَّ فلسطين وقضيتها التي تعرضت لانتكاسات عدة تستحق الكثير من العطاء والتنظيم.

من جميل قدر الله سبحانه وتعالى على أبو مرزوق وإخوانه الطلاب أن بداية السبعينيات من القرن المنصرم شهدت انفراجة كبيرة للعمل الإسلامي، ولنشاطات الإخوان المسلمين في مصر، نظراً للأهداف الداخلية لمحمد أنور السادات—الرئيس المصري الأسبق، التي هدفت إلى تقويض قوة التيار اليساري ونشاطاته المختلفة، الذي مكن الشباب الفلسطيني من الالتقاء بالعديد من الشخصيات البارزة في قيادة العمل الوطني والإسلامي، والاستفادة من تجاربهم السابقة، كما أتاح لهم الاطلاع على الأفكار غير الإسلامية، والاستفادة من حسناتها.

تمثل الهدف الرئيس من النشاط الطلابي آنذاك في التأطير التنظيمي وفق أبجديات ومفاهيم إسلامية، فكان العمل الدعوي المميز بالتواصل الإيجابي، والنشاطات المستمرة، والزيارات الاجتماعية، هو عنوان مرحلة الدراسة في مصر، لا سيّما وأن أعداد الفلسطينيين الوافدين من غزة والضفة وسورية ودول الخليج كانت بالآلاف.

استطاع أبو مرزوق مع رفاق دربه من خلال هامش الحرية والحركة الدؤوبة من تنظيم المئات من الطلاب الفلسطينيين في صفوف الحركة الإسلامية، وإيجاد قناة اتصال رسمية بتنظيم الإخوان الفلسطيني، وإيجاد قناة اتصال أخرى مع تنظيم الإخوان المصري، من خلال الأستاذ كمال السنانيري، وجلب عدد من كتب الإخوان المحظورة في مصر.

ففي سنة 1970 زار أبو مرزوق سورية، وأحضر مجموعة من كتب الإخوان المسلمين عن طريق الإبحار من ميناء بيروت إلى الإسكندرية، بعد أن مزّق الصفحة الأولى للكتاب الواحد مع تجليده من جديد؛ ليخفي معالمه أمام ضباط الجمارك، وفعلاً نجح في تحقيق هدفه.

يقول أبو مرزوق عن هذا الموقف:

> أذكر أن أحد ضباط الجمارك فتح شنطة من الشنط التي وضعتُ فيها كمية كبيرة من الكتب، وأخرج كتاباً، وأخذ يقرأ في صفحاته دون أن يعرف تفاصيله، فأُعجب في الكتاب، وقال: "الله الله ده كلام جميل جداً جداً"، قلت له: "حابه؟" قال

لي: "يا ريت"، قلت له: "خلاص خذه هدية"، فأخذه، دون أن يعرف أن صاحب الكتاب هو المفكر الإسلامي أبو الأعلى المودودي؛ لأنَّ الصفحة الأولى كانت ممزقة، أو مجلدة ضمن التجليد العام.

كنا نُوزع كتاب "معالم في الطريق" ليقرأه الشباب، لقد قسمناه فصولاً عدة، كل فصل بعنوانه الموجود في الكتاب الأصلي، دون أن يعرف الشباب أن هذه الفصول تعود لكتاب "معالم في الطريق"، وبالتالي كان الجميع يقرأه دون حرج أو خوف. حتى الطلاب المصريين في تلك المرحلة، مثل عبد المنعم أبو الفتوح، وأبو العلا ماضي، وعصام العريان، والمجموعة الطلابية التي تُدير الاتحادات الطلابية، والجمعيات الثقافية، يقرأون هذه الفصول، ويطبعونها، ويوزعها، المهم أن الكتاب الواحد يُقسم إلى نشرات عامة دون عنوان يدل على فكر الإخوان، أو الارتباط بهم، وبذلك استطاعوا أن يزودوا عناصرهم بفكر الإخوان المسلمين دون أن يلفتوا انتباه أحد حتى سنة 1974.[6]

بعد هذا الجهد الكبير الذي تميزت به تلك المرحلة وقد كان أبو مرزوق نشطاً في قيادة العمل الطلابي مع الأخوة عبد العزيز عودة، وعلي شكشك، وإبراهيم المقادمة، وبشير نافع، حيث ترأس العمل الطلابي وتنظيمه منذ سنة 1973 حتى تخرجه من الجامعة سنة 1975، وتوزعت مجموعات الطلاب الفلسطينيين في محافظات الإسكندرية، والزقازيق، والقاهرة، وانتظم المئات منهم تحت مظلة جماعة الإخوان وفكرها الإسلامي في تلك المرحلة، فأينما وجد الإخوان في جامعات مصر ينتظمون فيما بينهم، ويفوضوا مندوباً عنهم ليتصل بالقاهرة، وبالتالي كانت الحركة الطلابية مجمعة تحت قيادة معينة.

وبعد أن سافر أبو مرزوق إلى دولة الإمارات في 1977، عمل مع إخوانه على تأسيس أول فرع للإخوان المسلمين هناك، وأسهم في إنشاء مكتب التنسيق الموحد. وعندما انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية أسهم في إنشاء أول مركز إسلامي في مدينة فورت كولنز Fort Collins في ولاية كولورادو، ثم في روستن – لوزيانا،

[6] انظر: مقابلة مركز التأريخ والتوثيق الفلسطيني مع الدكتور موسى أبو مرزوق، تشرين الأول/ أكتوبر 2012.

كما أسهم في إنشاء العديد من المؤسسات والمراكز والهيئات والمدارس التي تنشط في العمل الإسلامي والقضية الفلسطينية في الولايات المتحدة الأمريكية.

وهو أحد مؤسسي الجامعة الإسلامية بغزة سنة 1978، وعضو هيئة الإشراف لاحقاً، وشارك في تأسيس حركة المقاومة الإسلامية (حماس) سنة 1987، وأعاد تنظيم صفوفها بعد أن اعتقل معظم كوادرها سنة 1989، وترأس مؤسسة القدس الدولية سنة 2001.

تقلّد أبو مرزوق مجموعة من المسؤوليات الكبيرة التي لم تُعفه من دفع ضريبة العمل الوطني فيما بعد، ومن أهم هذه المسؤوليات ما يلي:

أولاً: مسؤول العمل الطلابي في مصر في أثناء دراسته الجامعية سنة 1977.

ثانياً: مسؤول العمل الإخواني لبلاد الشام في الإمارات سنة 1978.

ثالثاً: عضو في المكتب التنفيذي للإخوان المسلمين في الأردن سنة 1979.

رابعاً: مسؤولاً عن العمل الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1988.

خامساً: رئيساً للمكتب السياسي لحركة المقاومة الإسلامية (حماس) سنة 1993.

سادساً: تمّ اعتقاله سنة 1995، ومنذ الإفراج عنه سنة 1997 من السجون الأمريكية تقلّد منصب نائب رئيس المكتب السياسي لحماس.

سابعاً: عضو في المؤتمر القومي العربي.

ثامناً: عضو مؤسس في المؤتمر القومي الإسلامي، وعضو الهيئة الإدارية الأولى.

تاسعاً: رئيس اللجنة التحضيرية لمؤسسة القدس الدولية، وبعدها رئيس مجلس إدارة مؤسسة القدس الدولية في الدورة الأولى، وما يزال عضواً في مجلس الإدارة.

هذه المسؤوليات وغيرها عرّضت أبو مرزوق لمجموعة من الإجراءات التي تعكس دوره المميز، ونشاطه المهم، ففي منتصف سنة 1995 أغلقت السلطات الأردنية مكتبه في عمّان، وأبعدته عن أراضيها بعد أن أقام فيها مدة سنتين، وفي

تموز/ يوليو 1995 اعتقل من قبل السلطات الأمريكية في مطار نيويورك دون تهمة،[7] وظلّ محتجزاً حتى تقدمت السلطات الإسرائيلية بطلب لتسلمه من الولايات المتحدة لاتهامه بإصدار أوامر لتنفيذ عمليات عسكرية ضدّ الكيان الصهيوني، وتحويل أموال لمقاتلي حماس.

في كانون الثاني/ يناير 1997 أصدرت محكمة فيدرالية أمريكية حكماً بتسليمه للسلطات الإسرائيلية، وقرر د. موسى أبو مرزوق عدم استئناف الحكم ضدّ تسليمه للسلطات الإسرائيلية بعد أن أمضى 22 شهراً في زنزانة انفرادية في سجن نيويورك الفيدرالي.

في نيسان/ أبريل 1997 قررت سلطات الاحتلال الصهيوني عدم تسلُّم أبو مرزوق؛ خشية قيام حركة حماس بشن سلسلة من الهجمات الانتقامية وعمليات اختطاف جنود لتحريره، ما أرغم السلطات الأمريكية على نقله إلى الأردن، وفي آب/ أغسطس 1999 أبعدته حكومة الأردن للمرة الثانية بعد عامين من الإقامة فيها، لينتقل إلى سورية، ثم انتقل إلى مصر سنة 2011، وبعد عدوان 2014 انتقل إلى غزة.

هذه مجموعة من التحديات والمبادرات والمسؤوليات التي قام بها د. موسى في مشواره النضالي الذي بدأ منذ الطفولة، عنوانه الرئيس: من أراد القوة والحرية والكرامة والتخلص من الاحتلال، فعليه بالعطاء الذي يحدد المنطلقات المطلوبة، ويُميّز الأولويات المهمة.

---

[7] تطرق الجزء الأول من الكتاب بعنوان: **د. موسى أبو مرزوق مشوار حياة: ذكريات اللجوء والغربة وسنوات النضال**، للكاتب: شاكر الجوهري، إلى تجربة أبو مرزوق في سجن نيويورك بشكل مُفصل، ووقف على أحداثها، ووثق وقائعها، وترك للقارئ حرية التأمل في ثناياها؛ ليرسم الصورة التي يُريدها، ويحكم على واقع العالم الذي يدعي العدالة، والديموقراطية، وحقوق الإنسان!!!
انظر: شاكر الجوهري، **د. موسى أبو مرزوق مشوار حياة: ذكريات اللجوء والغربة وسنوات النضال**، الجزء الأول (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، 2019).

سادساً: بعد سجن نيويورك:

"إذا كنا أقوياء، فستعبر قوتنا عن نفسها، وإذا كنا ضعفاء فلن تسعفنا الكلمات"

(جون فيتزجيرالد جاك كينيدي)

في أيار/ مايو 1997، وبشكل مفاجئ تمّ ترحيل أبو مرزوق من سجن نيويورك إلى الأردن، وصل مطار ماركا في عمّان دون ضجيج، وأرسلت السلطات الأردنية مندوباً لاستقباله، لكن لم تستقبله بالشكل الذي يليق بمقامه الوطني، ومكانته الفلسطينية، وكيف تُعطي للموضوع اهتماماً وقد أبعدته عن أراضيها سنة 1995، السبب الذي دفعه إلى السفر للولايات المتحدة الأمريكية حيث إقامته السابقة دون أن يتوقع من الأخيرة أنْ تُمزق القوانين المتبعة، لأجل أغراض سياسية، لا سيّما وأنها جددت له الإقامة قبل شهرين تقريباً من اعتقاله.

على أيّ حال احتفى الإخوان المسلمون في الأردن بحرية أبو مرزوق بشكل كبير، فأصبح بيته مزاراً لجميع قيادات التنظيم وأفراده العاملين، وأمضى ثلاثة أشهر متتالية في استقبال المهنئين، وتلبية دعوات الطعام، ومحاضرات التجربة، ومسامرات الأخوة.

وبالرجوع إلى الأيام الأولى من الإفراج، وبعد خمسة أيام تقريباً وصلت رُبا ابنة أبو مرزوق برفقة والدتها إلى الأردن، حيث دعاه ملك الأردن الحسين بن طلال مع عائلته كنوع من المجاملة الشخصية.

يقول أبو مرزوق:

> جاءت زوجتي أم عمر وطفلتي الصغيرة إلى الأردن بعد أربعة أو خمسة أيام من وصولي هناك؛ فقد حرصت أن تُعطى للزيارة طابعاً اجتماعياً، وليس طابعاً سياسياً، وبما أن الملك حسين رحمه الله لديه القدرة العالية في رسم العلاقات واستثمارها، بابتسامته المعهودة، وكلماته الدافئة، فقد تحدثنا عن حماس وسياساتها، والعلاقة مع الأردن ومستقبلها، بحضور نائبه وولي عهده الأمير الحسن، ومدير المخابرات العامة اللواء سميح البطيخي.

بعد أن أنهينا الزيارة، وعند توديعنا حدث موقفٌ طريفٌ مع طفلتي رُبا، إذ رفضت السلام على جلالة الملك رحمه الله عندما جاء ليُسلم عليها، كانت رُبا في حينه صغيرة السن، لم تبلغ من العمر سوى خمس سنوات، قالت له باللغة الإنجليزية: لماذا لم تُحضر الأميرات معك؟ أين الأميرات الصغيرات؟ حينها جلس الملك حسين على ركبته، وأخذ يضحك معها، ثم قال لها باللغة التي سألت بها: أعدك أن أُحضر الأميرات معي في اللقاء القادم، فكانت لفتة لطيفة.[8]

بلا شكّ كان لخروج أبو مرزوق من سجن نيويورك في تلك المرحلة انعكاسات واضحة على وضع الحركة الإسلامية في الأردن، خصوصاً ونحن نتحدث عن نشاط كبير لدى أفراد الإخوان المسلمين وكوادرها التي تحركت بشكل فعال تجاه خروج أبو مرزوق وقضيته التي أخذت بُعداً إعلامياً وقانونياً على المستوى الإقليمي والدولي.

شكل خروج أبو مرزوق من السجن عاملاً إيجابياً على وضع الإخوان المسلمين في الأردن، وكذلك على حركة حماس، التي اجتمع مكتبها التنفيذي إبان وصوله إلى الأردن ليقرر في طبيعة مكانته الجديدة، بعد أن حدثت تغيرات داخله أبرزها تولي الأستاذ خالد مشعل رئاسة المكتب السياسي.

يقول أبو مرزوق:

بعد خروجي من السجن بأيام قليلة، عقدت اللجنة التنفيذية لحركة حماس اجتماعاً عاجلاً في ماليزيا؛ لبحث قضايا عدة، أهمها طبيعة عملي بعد الإفراج عني، ووصولي إلى الأردن، وعليه؛ قرر المجتمعون عودتي إلى عضوية اللجنة التنفيذية والمكتب السياسي، وتم الاتفاق أن أكون نائب رئيس المكتب السياسي للحركة، وبعد شهرين تقريباً كان الاجتماع الثاني للمكتب التنفيذي في سورية، حضرتُ الاجتماع، وعدتُ إلى عملي بطريقة طبيعية، مع أن أعضاء اللجنة التنفيذية للحركة ليس بالضرورة هم الأشخاص الأكثر وضوحاً على شاشة التلفزة، أو المعروفين، فالمكتب السياسي هو الجهة العلنية للمكتب التنفيذي، الذي

[8] مقابلة مركز التأريخ والتوثيق الفلسطيني مع الدكتور موسى أبو مرزوق، تشرين الأول/ أكتوبر 2012. (بتصرف)

لا يظهر أغلب فواعله على شاشات الإعلام أو في الأماكن التي يُمكن أن يُعرفوا من خلاله؛ وعليه فإن قيادة الحركة ليست محصورة في شخصيات معينة، بل تتجلى في إطار أوسع من الصورة الظاهرة.

قرر مجلس شورى الحركة في اجتماع سابق أن يتم مساءلتي عن مخالفتي قرار المكتب التنفيذي عندما ذهبت للولايات المتحدة الأمريكية، لا أعرف بالضبط متى صدر القرار؟ لكن أعتقد أنه اتخذ في أثناء اعتقالي، المهم شُكلت لجنة برئاسة الشيخ عمر الأشقر، وعضوية كلٍ من الأستاذ إبراهيم غوشة، ونائب المراقب العام في الأردن سالم الفلاحات (أبو هشام)، وكان عضواً محلياً لشورى الحركة أيضاً، استمعت اللجنة إلى أقوالي، ورفعت توصياتها إلى مجلس الشورى، وفي النهاية كان القرار طيّ صفحة الماضي، وعدم اتخاذ أي إجراء ضدي في هذا الموضوع، وانتهت القضية بإغلاقها.

كان هناك قرار بعدم السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت، غير أنني سافرت، وهذا يعني أنني خالفتُ قرار اللجنة التنفيذية التي كنتُ رئيساً لها، وبالتالي من الطبيعي أنْ تُشكل لجنة من أجل الوقوف على حيثيات الموقف ودوافعه، فقراري بالذهاب إلى نيويورك لم يكن مجرد مخالفة لرأي المكتب التنفيذي، وإنما كان البديل عنه مُتعذراً، فقد طلبتُ من الإخوة إيجاد مكان آخر للذهاب إليه، فلم يجدوا، فأصبحتُ بلا خيارات، لا يوجد مكان يستقبلني سوى مكان إقامتي في أمريكا، المسوغ الذي ساقني إلى قدري الذي كشف عورة الديموقراطية الزائفة التي تتغنى بها أمريكا، وبين قوة العلاقات المتينة التي تربط مصالح الأخيرة بـ"إسرائيل".[9]

حمل رأي أبو مرزوق الشخصي تجاه اللجنة في طياته شقين متناقضين، الأول ما يتعلق بدور اللجنة وطبيعة عملها، الذي يفرض على أعضائها المهنية في التعاطي مع المسائل القانونية، بغض النظر عن العلاقات الشخصية، مما يُوجب عليهم عدم التعاطف أو الانحياز في التعاطي مع القضية المطروحة، وهذا ما أكده أبو مرزوق عندما نفى وجود أيّ صورة عدائية أو ودية من قبل أعضاء اللجنة التي تولّت مساءلته.

[9] المرجع نفسه.

أما الشق الثاني فيتعلق بشعوره العاطفي تجاه هذه القضية بشكل عام، فقد كان يشعر بالاستياء الشديد، والامتعاض المرير من قرار تشكيل اللجنة.

لذلك كان صريحاً، فقد قال لهم:

> من يكونوا في مثل هذه المواقع معرضون للاستهداف لتحيدهم وإفشالهم وذلك بالاعتقال والسجن أو بالاستهداف والقتل ولذا كان غريباً أن يتم انتخاب رئيس المكتب السياسي وأنا معتقل وهناك عشرات الأمثلة في الحفاظ على مسميات من يشغلون هذه المواقع وهم في الاعتقال مثل نيلسون مانديلا [Nelson Mandela] في جنوب إفريقيا وأحمد بن بللا في الجزائر، وأحمد سعدات في فلسطين (وسعدات لم يكن في ذلك الوقت أميناً عاماً للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين).

حيث تمّ تجريد أبو مرزوق من رئاسة المكتب السياسي لحماس، وانتخاب الأستاذ خالد مشعل، الأمر الذي أضعف موقفه داخل المعتقل، وذكر لهم: "لما يكون في قرار بعدم الذهاب إلى أمريكا يجب أن يكون هناك بديل للذهاب إليه، وإلا فلا يُمكن محاسبة شخص على موقف لا خيارات فيه"، وهنا لا بدّ من ذكر أن أبو مرزوق كان قد جاب عدد من العواصم العربية بهدف الاستقرار فيها، كسورية، ومصر، واليمن، والإمارات، والسودان، إلا أنه لم يجد من يُرحب بإقامته، في ظلّ أنَّ أسرته انتظرت مكاناً للاستقرار، بعد أن مُنعت من العودة لغزة بالرغم من أنهم مواطنون، ويحملون الهوية التي تسمح لهم الإقامة فيها.

في النهاية أُغلقت القضية، وقرر المكتب التنفيذي لحماس تعيين أبو مرزوق نائباً لمشعل، ولأنّ الدورة الانتخابية لحركة حماس كانت قد انطلقت بدأ أبو مرزوق العمل دون أن يتقلد مسؤولية خاصة لأي ملف من ملفات الحركة التي تتحرك وفق أهدافها الاستراتيجية.

ومع بزوغ سنة 1998 كان المشهد الفلسطيني يُلقي بظلاله حول الإرهاصات التي تشي بانسداد أُفق العملية السياسية بين السلطة الفلسطينية والاحتلال الإسرائيلي، وفشل مفاوضات كامب ديفيد Camp David Accords، والذهاب إلى انتفاضة ثانية، وما يمكن أن ينجم عنها من تداعيات مختلفة.

وبتدافع هذه التوقعات برزت حادثتان كبيرتان، ساعدت بشكلٍ فاعل في تأجيج المقاومة وأشكالها، وتعزيز الصمود الفلسطيني وتحدياته، فبُعيد خروج أبو مرزوق من سجن نيويورك حاولت المخابرات الإسرائيلية اغتيال رئيس المكتب السياسي لحماس خالد مشعل في عملية استخباراتية فاشلة على أرض الأردن، خرج على إثرها الشيخ أحمد ياسين من سجون الاحتلال في عملية تبادل مشرفة، إذ حاول الملك حسين من خلالها ردّ الاعتبار المعنوي لبلاده التي استباحها الموساد الصهيوني Mossad.

وقد كشف د. رونين بروغمان Ronen Bergman الذي يعمل في صحيفتي نيويورك تايمز ويديعوت أحرونوت بعضاً من حيثيات قرار اغتيال خالد مشعل، فقال:

> في أعقاب العمليات العسكرية لحماس عام 1997، قال رئيس الحكومة [بنيامين] نتنياهو [Benjamin Netanyahu]، أريد استهداف قادة حماس، اتركوا التجار، اتركوا الصغار، أريد القادة، فأخبره جهاز المخابرات (الموساد): نعتقد أن خالد مشعل هو المسؤول الأكبر في حماس، فرد عليهم: من يكون خالد مشعل؟ أريد موسى أبو مرزوق، فأجابه الموساد: لكنه مواطن أمريكي، لم يكترث نتنياهو لهذه النقطة وقال: ماذا يعني مواطن أمريكي طالما أنه يتسبب بجرائم ضدّ دولة إسرائيل. وانتهى الحديث عند ذلك، إلا أن الموساد لم يتقيد بأوامر رئيس الحكومة، وأصدر تعليماته لفريق التعقب ببذل جهود كبيرة حول خالد مشعل، ولما عادوا لنتنياهو قالوا: لدينا معلومات عن خالد مشعل، ولا يوجد معلومات كافية عن موسى أبو مرزوق.

يعقب بروغمان: "فعلياً قام الموساد بحرف إمكانية استهداف من لم يعتقد الموساد وجوب استهدافه، لأنه مواطن أمريكي".[10]

[10] وثائقي إسرائيلي عن حركة حماس، الجزء الثاني، قناة كان 11 الإسرائيلية، ترجمة وكالة شهاب، 2019/11/7.

يقول أبو مرزوق:

قرر نتنياهو في لحظة معينة اغتيال رئيس المكتب السياسي لحماس، ووافق على الإجراءات التي قُدمت له من أجل تحقيق ذلك، وفي اعتقادي أن الاحتلال كان لديه عملاء في الأردن، إضافة للموساد، لذلك كان الاغتيال بحقن مادة سامة باتجاه الأذنين تقوم بها مجموعة ميدانية مترجلة، لها مجموعة رديفة في السفارة، وثالثة في الفندق؛ لاحتواء أي خطأ قد يحدث.

قدر الله اقتضى أن يكون أحد الإخوة في المكان (أبو سيف، أحد مرافقي مشعل)، وأن يُلاحقهم، ثم ينقض عليهم ويُعاركهم، ومن هنا ظهرت تصريحات رئيس المخابرات الأردنية سميح البطيخي الذي وصف المشهد بالمشكلة العادية (المهاوشة)، دون الاهتمام الفعلي لأبعاد الموضوع وتداعياته الخطيرة؛ مما أعطى انطباعاً عند بعض المراقبين أن البطيخي كان يعلم بالموضوع وحيثياته؛ لأنه أنكر حجمه الفعلي، وغطى على تفاصيله الحقيقية.

البطيخي، كما وصفه الكاتب بول ماغّوو Paul McGeough في كتاب "اقتل خالد Kill Khalid"، هو شخصية ماكرة، بشعره الأبيض، وملابسه الأنيقة، وربما كان أقوى شخصية في خلطة "الشرق يلتقي مع الغرب" والتي يشكلها كوكتيل الأردن، وعليه فقد كان الملك حسين يعتمد عليه في أثناء غيابه في زيارات دورية إلى البيت الأبيض وحضوره حفلات استقبال في العواصم الأوروبية، وقد وصفه ديف مانرز Dave Manners، رئيس محطة وكالة الاستخبارات الأمريكية في عمّان، أنه "أروع ضابط استخبارات في العالم" حسبما ذكر ماغّوو في كتابه.[11]

يُواصل أبو مرزوق حديثه:

بدأت حالة الإعياء تظهر على جسد مشعل بشكل واضح، عندها تم نقله إلى المستشفى الإسلامي، وتم إجراء العديد من الخطوات العلاجية الممكنة، إلا أن استجابته كانت شبه معدومة، مما جعل حالته الصحية في غاية السوء والحرج، فقد تنفس من خلال الأجهزة الصناعية، لأن عملية التنفس اللا إرادية توقفت كلياً

[11] بول ماغّوو، **اقتل خالد: عملية الموساد الفاشلة لاغتيال خالد مشعل وصعود حماس**، ترجمة مروان سعد الدين (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2009)، ص 106.

أو شبه كلي، وعليه؛ فقد أصبحت الأخبار التي تتحدث عن محاولة اغتيال خالد مشعل أكثر تداولاً، وبدأت القنوات الإعلامية تتناقل الموضوع بشكل جدي، ومن هنا تحرك القصر الملكي بخطوات جدية؛ لأنها الواقعة الأولى التي تحدث فيها محاولة اغتيال على الأرض الأردنية بعد اتفاقية التسوية السلمية.

تحرك الملك حسين بخطوات عملية، وحاول نقل مشعل للمدينة الطبية، غير أن الإخوان والمعالجين اعتذروا عن الاستجابة لطلبه؛ لعدم ثقتهم بالمؤسسة الرسمية للدولة، خصوصاً أن هناك تجاذبات متناقضة للمؤسسات الرسمية في المملكة، وروايات تستبعد عملية محاولة الاغتيال. لم ينتهِ الحديث عند هذا الحد، فقد أصرت المخابرات على تطبيق رغبة الملك، وقابل ذلك رفض شديد من الحركة الإسلامية.

يضيف أبو مرزوق:

تواصل معي اللواء البطيخي، راجياً تحقيق رغبات الملك بنقل مشعل إلى المدينة الطبية لإمكانياتها المميزة، أجبته بمتابعة الموضوع بما يحقق المصلحة المطلوبة، ثم ذهبتُ إلى المستشفى الإسلامي، فوجدتُ حالة التوتر في أقسامه ظاهرة، وصورة التردد على وجوه أطبائه واضحة، عندها اتصلتُ بالملك حسين والبطيخي لتحديد أهم الشروط الضامنة لسلامة مشعل في حال وافقت الحركة على طلبه.

كنتُ أبحث عن إجراءات وقائية تُطمئن الناس على حالة مشعل، فاتفقتُ مع البطيخي على نقله مع عدد من المرافقين، والسماح لقيادات الحركة بزيارته دون انقطاع، وبعدها وضعتُ الإخوة في صورة الموقف، واتفقتُ معهم على نقله، وقدمتُ لهم مسؤوليتي الكاملة عن هذا القرار، وفعلاً نُقل للمدينة الطبية، وبدأت رحلة العلاج والبحث عن الترياق، وتدخل الملك حسين متوعداً ومهدداً حتى جاء به، وتمّ حقنه به، وتعافى مشعل، وكأن شيئاً لم يكن.

لم تنتهِ القصة بهذه البساطة كما يقول أبو مرزوق، بل إنَّ تداخلات عدة طغت على المشهد، فتهديد الملك حسين للإسرائيليين كان ينطلق من عناصر القوة التي

بيده، وليس شرطاً أن تنحصر كما يعتقد بعض الشباب في الصواريخ والطائرات فقط، بل إنها تعتمد على جملة من المعطيات التي تُحقق الموقف الأقوى بشكل عام، وهذا ما حدث في قضية مشعل؛ أهمها إمساك الأجهزة الأردنية بعميلين من الموساد الصهيوني، نفذا عملية الاغتيال الفاشلة، التي حظيت بتغطية إعلامية واسعة، وجعلت "إسرائيل" في موقف الضعيف الذي يسعى للخروج من الأزمة بأقل الخسائر الممكنة.

ويضيف: "أما العنصر الثاني فيتعلق بوجود عدد كبير جداً من الفلسطينيين في الأردن، وهذا أقوى عناصر القوة التي توفرت لدى الملك حسين".

انطلقت تهديدات الملك حسين المعروفة، ولولا تدخله، كما يؤكد أبو مرزوق، والضغط على "إسرائيل" من أجل إحضار الترياق المضاد للمواد السامة لما تمكن الأطباء من علاج مشعل، ولبقي سنوات تحت التنفس اللا إرادي، فطبيعة السموم التي استخدمت تعمل على إيقاف العصب المسؤول عن التنفس. بلا شكّ لم تكن القضية سهلة، حتى على المستوى السياسي كان هناك حديث متكرر مع المخابرات، وضغوط إسرائيلية هائلة من أجل إطلاق سراح عملاء الموساد.

يُكمل أبو مرزوق المشهد التاريخي: بعد أن تعالج الأخ مشعل ومرافقه أبو سيف الذي تعرض لضربات قوية في رأسه، فقد كان العميلان يلبسان الكف الحديدي، مما ضاعف الضربات التي تلقاها، فأصيب جسده بجروح كثيرة، وشُجت رأسه بإصابات خطيرة، خشي الأطباء أن ينتج عنها ارتجاج بالدماغ ووظائفه المتعددة، إلا أن الله تعالى سلّمه من ذلك، وتعافيا بشكلٍ ملحوظ، عندها اشترط الملك حسين إطلاق سراح الشيخ أحمد ياسين حتى يُطلق سراح عملاء الصهاينة الذين كسروا حرمة وطنه، واعتدوا على شخصية فلسطينية وازنة.

هنا يظهر ذكاء الملك حسين في استثمار الفرص، كما يصفه أبو مرزوق، إذ إنه استطاع أن يرسم صورة متكاملة في عام واحد، فإخراج ياسين من السجن المؤبد، ومعالجة مشعل من الموت المحقق، وقبول إقامة أبو مرزوق في الأردن بعد خروجه

من سجن نيويورك، صورة لها دلالات قوية، أبرزها أن حركة حماس أصبحت ممتنة لمواقفه المتعددة تجاه قادتها البارزين.[12]

في سياق المفاوضات التي خرج على إثرها الشيخ ياسين يقول أبو مرزوق: "فور انكشاف عملية الاغتيال، واستجابة الاحتلال الإسرائيلي بإحضار الترياق، هربت بعض الفرق الإسرائيلية المساندة لفرقة التنفيذ عبر الجسر إلى "إسرائيل"، والبعض الآخر هرب بالطائرات إلى أوروبا وكندا، حتى الفريق الديبلوماسي الذي يعمل في السفارة الإسرائيلية غادر الأردن إلى فلسطين المحتلة".

في ظلّ هذا المشهد زادت ضغوطات المخابرات الإسرائيلية على الجانب الأردني لاستعادة عملائها الفاشلين، مقابل تعالي أصوات الشارع الأردني بأطيافه المتنوعة تُطالب السلطات المختصة بمحاكمة العملاء، وإنزال أشد العقوبات بحقهم، ثم سرعان ما ضجت الساحة الأردنية بالأحاديث التي تُطالب بإجراء عملية تبادل يخرج على إثرها أسرى فلسطينيون وأردنيون.

يقول أبو مرزوق:

> في خضم هذه الضغوطات التي جعلت الموقف الأردني في غاية الحرج، كنتُ على تواصل مباشر مع البطيخي، المفاوضات بيننا تدور حول إطلاق سراح الشيخ أحمد ياسين وآخرين، إذ لا يمكن للساحة الأردنية أن تتقبل إطلاق سراح عملاء الموساد دون مقابل وازن، ومع تعالي الأصوات التي تُطالب بذلك، أصبح الملك حسين يبحث عن مخرج يُرضي الجماهير الغاضبة من جانب، ويتخلّص من الضغوطات الإسرائيلية دون الإضرار بالمصالح المتبادلة من جانب آخر.
>
> من هنا التقط الملك فكرتي حول إخراج الشيخ أحمد ياسين، وقرر أن يمضي بها دون تردد؛ فهي تمكنه من أن يضرب عشرين عصفور بحجر واحد، فهي تمنع الأردنيين من الاحتجاج على عدم إخراج أسرى أردنيين، ويحقق طموح

[12] مقابلة مركز التأريخ والتوثيق الفلسطيني مع الدكتور موسى أبو مرزوق، تشرين الأول/ أكتوبر 2012. (بتصرف)

الفلسطينيين (...)، فالشيخ يُمثل للجميع رمزاً وطنياً إسلامياً كبيراً، لذلك كان المخرج المناسب أنْ يُقدم الجانب الإسرائيلي الترياق، ويُخرج الشيخ مقابل استعادة عملائه من الموساد.[13]

خروج الشيخ أحمد ياسين:

مهدت قوات الاحتلال الصهيوني للإفراج عن الشيخ ياسين، كما يقول أبو مرزوق، دون أن يعلم ما يدور خارج أسوار السجن بالتطورات الأخيرة، وأحداثها المتسارعة، فقد عرضوا عليه الخروج من السجن بشرط أن يذهب إلى الأردن، فرفض بشكلٍ قاطع، وأبلغهم أن خروجه لن يكون إلا إلى قطاع غزة.

يقول أبو مرزوق:

ولأن ياسين امتلك عقلاً مستنيراً، وإرادةً قوية، وهيبةً واضحة، فقد استطاع أن يُحقق مراده من خلال تعهد كتبه الإسرائيليون ووقعوا عليه، وقد سلمني ورقة التعهد الأصلية بعد وصوله مدينة الحسين الطبية. وقد أُثير في الأردن قبيل خروج ياسين أن الإسرائيليين سيبعدونه إلى الأردن، فاتصلت بالملك حسين لأستفسر عن ذلك، فأكد لي أن خروج ياسين سيكون إلى قطاع غزة، وأعتقد أن الملك والبطيخي في ذلك الوقت حاولا أن أرافق ياسين إلى غزة دون علمي بذلك، إلا أن "إسرائيل" رفضت.

جميع الأحداث كانت في المدينة الطبية، علاج خالد مشعل ومرافقه أبو سيف، وعلاج الشيخ أحمد ياسين، والطائرة التي أحضرته حطت رحالها فيها، والطائرة التي قامت بنقل العملاء من عمّان إلى "إسرائيل" أقلعت من مبنى المخابرات العامة المجاور تماماً للمدينة الطبية، أي أن مسرح العملية وأحداثها المتعاقبة كان فيها.

المهم في تلك المساحة هبطت الطائرة، واستقبلنا الشيخ ياسين، ثم ذهب إلى غرفته، وبعدها جاء الملك حسين ليطمئن على صحته المُتعبة بهموم الوطن لا بعجز الجسد.

[13] المرجع نفسه.

بعد يومين تلقيتُ اتصالاً من الديوان الملكي لأتحدث بعدها على الهاتف الأرضي مع الملك لمرافقته في استقبال الرئيس الراحل ياسر عرفات قائلاً لي: "إن عرفات سيأتي لزيارة الشيخ ياسين غداً، وحابب أستقبله وتأتي معنا لزيارة الشيخ ياسين في المدينة الطبية"، فوافقت على ذلك، وفي موعد الزيارة، جاء عرفات بسيارته الخاصة، واستقبلناه بما يليق بالرؤساء.

في أثناء السير باتجاه غرفة الشيخ ياسين حدث موقفٌ طريفٌ، كان دافعه أن عرفات في تلك المرحلة تعافى حديثاً من مرضه إبان سقوط طائرته في سبها بالصحراء الليبية، وكانت إصابته في الدماغ، والطبيب المختص في المخ والأعصاب الذي عالجه يعمل في المدينة الطبية. المهم أن الملك استثمر هذا اللقاء ليختبر قدرات عرفات العصبية والجسدية، وبينما كنتُ أسير على يسار عرفات والملك على يمينه، فإذا بأحد مرافقي الملك يُقاطع سيرنا بعد حركة لطيفة رأيتها تخرج من الملك باتجاهه، وقال موجهاً حديثه للملك: سيدي المصعد عطلان، وقد لا نستطيع أنْ نصعد إلى الأعلى إلا عبر "السلّم"، وفعلاً كان السلّم طريقنا إلى الأعلى، حينها فهمتُ أن الملك كان يتأكد من قدرات عرفات الجسدية والعصبية، بلا شك كان ذكاء الملك واضحاً في ذاك الموقف الطريف، وكان ردّ عرفات أن صعد الدرجات دفعة واحدة بنشاط واضح، عكس من خلاله صورة أكثر من رائعة.

لطائف عرفات في تلك الزيارة:

لاطف عرفات الشيخ ياسين بطريقته التي يُحب أن يستخدمها في كثير من الأحيان، عبر اختلاق بعض القصص التي تُضفي على الجلسة نكهة الابتسامة الجميلة، وهذا ما حصل عندما وجه حديثه لي قائلاً: تصور يا موسى، فرديت عليه: تفضل أخ أبو عمار (كل هذه الألفاظ يقبلها ولا يعترض على أحدها، فعرفات يُؤْلَف بسرعة كبيرة، فهو رجل كريم النفس، حلو المعشر) فقال: تصور أني درستُ مع الشيخ أحمد في صف دراسي واحد، وكان الشيخ أحمد أجدع مني في الدراسة. ونسي عرفات أنه من مواليد 1929، والشيخ أحمد مواليد 1936، يعني أن الفرق بينهما سبع سنوات تقريباً، ولم يتذكر أنه لم يأتِ إلى قطاع غزة.

الذي أكترثُ لأجله أن عرفات يدعي أنه درس في صف الشيخ ياسين، بينما هو درس جميع مراحل المدرسة في مصر، ثم انتقل إلى جامعة القاهرة ليدرس الهندسة، وبقي يرسب في بعض المواد الدراسية ويُعيدها، حتى يبقى رئيساً لرابطة طلبة فلسطين.

في الحقيقة لا أعلم كيف استطاع عرفات أن يترأس اتحاد مجلس الطلبة الفلسطينيين لكني أعرف قصة اللباس الفلسطيني (الحطة والعقال) الذي كان يرتديه بشكلٍ دائم، فقد ذهب في زيارة طلابية مع بعض الإخوة الفلسطينيين إلى رومانيا، وحرص على أن يكون ممثلاً عنهم، وعندما وصلوا هناك أخذ من زميله عز الدين طه، شقيق الشيخ أبو أيمن طه—رحمهم الله جميعاً—الحطة والعقال وقام بارتدائها في أثناء الحديث مع ممثلي المؤسسات الطلابية أو مخاطبة الجماهير الطلابية، ومن ذلك التاريخ وهو يرتدي الحطة والعقال، ولما تخرج من الجامعة وترك اتحاد الطلاب، ذهب إلى كلية جنود الاحتياط، وفي ذلك الوقت لم يكن يُسمح للطلبة الفلسطينيين أن يلتحقوا بالكلية الحربية، وبالتدقيق نجد أن أول دفعة فلسطينية التحقت بالكلية الحربية كانت سنة 1954، كان من بينهم عبد الرزاق المجايدة، وصابر أبو لبدة وآخرون، أما عرفات فقد التحق بالكلية الحربية بعد الخمسينيات، لذلك فهو في أغلب الظن أنه يحمل الجنسية المصرية، هذه هي الرواية التي أميل لها، وأقتنع بها؛ فوالدته على أغلب الظنون ولدت في مصر ودفنت فيها، أما أبوه فقد تُوفي في مدينة خان يونس ودفن فيها، أما سبب تضارب الروايات واختلافها فمرده إلى عدم حديث عرفات وإخوانه عن تاريخهم وأحداثه التي تتقاطع مع الدراسة في المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية، ولم يتحدث عرفات يوماً عن أصوله التعليمية أو ما شابه ذلك، أعتقد أنه كان يخشى أن يبحث الناس في هذا الملف، الذي قد يُخفي من خلاله بعض الأسرار التي لا يُحب أن تظهر للعلن.

يُعلل أبو مرزوق استطراده بالحديث السابق بقوله: "إن الذي دفعني للتطرق لهذه القضية، هو موقف عرفات الذي ذكر فيه أن ياسين كان في صفه الدراسي، غير أن عرفات لا يختلف أحد عليه، فهو أحد أبرز رجالات فلسطين الذين خاضوا

معاركها في ساحات عدة محلية وإقليمية ودولية، وهو الأكثر حضوراً وتأثيراً في القضية الفلسطينية".

عموماً أنهى عرفات زيارته بعد أن اطمأن على الشيخ ياسين، وغادر المستشفى بأجواء يسودها اللطف والمحبة، التي تُمكن الشيخ ياسين أنْ يبدأ مرحلة جديدة من العمل الفلسطيني داخل الأرض المحتلة.

ونظراً لبعد أهل الشيخ ياسين عنه في أثناء مرحلة علاجه في المستشفى الطبي، قامت زوجة أبو مرزوق، السيدة نادية العشي، بمهام إعداد الطعام، فأعدت له أغلب الأكلات التي يرغب في أكلها، مثل الملفوف والمحاشي والمفتول وغيرها.

كانت الزيارات إلى الشيخ مفتوحة وما بقي أحد إلا وزار الشيخ، حتى في الأيام الأخيرة من وجود ياسين في المستشفى الطبي، وبعد أن أجرى عمليات عدة في عينيه وأذنيه، وبعض العلاجات الأُخرى، جاء مشعل بعد أن تعافى تقريباً من أثر السم، وزار الشيخ ياسين في غرفته الخاصة.

يقول أبو مرزوق:

> قبل أن يركب ياسين طائرة الهليوكبتر [Helicopter]، ويعود مظفراً إلى قطاع غزة، ترددت بعض الإشاعات المتعلقة بعدم عودة ياسين إلى قطاع غزة، عندها اتصلتُ بالملك حسين مباشرة، ووضعته في صورة الأخبار المتداولة، وذكرته أن ياسين كان قد حصل قبل مجيئه إلى الأردن على ضمانات مكتوبة تنص على عودته إلى قطاع غزة، فأخبرني أن عودة ياسين إلى غزة قريبة جداً، وفعلاً تمّ ترتيب هذه المسألة، ورجع هناك، واستقبلته الحشود الكبيرة في ملعب اليرموك.

جولة الشيخ أحمد ياسين الخارجية:

خرج الشيخ ياسين من سجون الاحتلال الصهيوني ومعه تقريرٌ طبيٌّ يُفيد بأن لديه التهاباً في عظمة الأذن يزحف باتجاه المخ، وأنه بحاجة ماسة لعملية عاجلة لإزالته، ولما اطلع بعض الأطباء على التقرير، عرضت عليه السعودية ومصر العلاج في مستشفياتهما الخاصة، وعلى هذا الأساس قرر ياسين السفر للخارج.

لم يكن بحسبان الشيخ ياسين أن يقوم بجولة كبيرة كالتي حدثت، ولم يخطر بباله أن تستقبله الدول العربية وغير العربية بالصورة الرسمية التي تجلّت في الإعلام، فهو يُدرك أن بعض الحكومات لها سياسات غير مرحبة به، وأن شخصاً مثله متهم بمقاومة الاحتلال الصهيوني غير مُرحب به في بعض العواصم العربية، وأن تعقيدات الواقع أكبر مما يمكن أن تتحمله تلك البلاد ومصالحها المختلفة.

إلا أنّ غير المتوقع يحدث دائماً كما يقول الكاتب الفرنسي أندريه موروا André Maurois، بدأ الشيخ ياسين جولته الخارجية قُبيل موسم الحج سنة 1998، حيث سافر من خلال معبر رفح البري إلى مصر الكنانة، وللأسف الشديد لم يتمكن من زيارتها، فقد أخذه المصريون (المخابرات) من المعبر إلى المستشفى العسكري "النيل" بمصر الجديدة، ولم يسمحوا لأحد بزيارته أو مقابلته، سواء من الإعلاميين أم الكتاب والمثقفين أم من جماعة الإخوان المسلمين، حتى أصحاب التوجه الإسلامي من الأطباء والممرضين مُنعوا من الوصول إلى غرفتهاالمخصصة.

شعر ياسين كما ذكر في بعض مقابلاته أنه كان في سجن حقيقي استمر لـ 15 يوماً، وبعدها سافر إلى السعودية للعلاج، وأداء مناسك الحج، وكان في استقباله ولي العهد الأمير عبد الله شخصياً، ومن هنا نشأت بينهما علاقة خاصة، انعكست بشكل إيجابي على حركة حماس وأنشطتها المختلفة، إذ تلقت دعماً كبيراً منه.[14]

يقول أبو مرزوق:

> رافقتُ الشيخ ياسين في عدد من الدول التي زارها في الخارج، ذهبتُ معه إلى السودان، وسورية، والسعودية، والكويت، وإخوة آخرون رافقوه إلى الإمارات وإيران وبعض الدول الأخرى، في الحقيقة كانت لجولته الخارجية آثار إيجابية كبيرة، برزت ملامحها في حجم الاستقبالات الرئاسية والملكية التي حظي بها.

[14] انظر: **موسوعة الأعمال الكاملة للشيخ أحمد ياسين (مؤسس حركة المقاومة الإسلامية حماس)** (غزة: مركز التأريخ والتوثيق الفلسطيني، 2015)، المجلد الأول، ص 198.

تمكن ياسين من زيارة معظم دول الخليج، كان منها السعودية والكويت والإمارات، وبعض الدول الأخرى مثل إيران وسورية، لقد حظي باستقبالٍ رسمي مهيب، فالسودان مثلاً أعدت له استقبالاً رئاسياً حافلاً، والسعودية استقبلته استقبالاً ملكياً كبيراً، لكن أهم زيارة نوعية من وجهة نظري، كانت زيارته للجمهورية العربية السورية؛ إذ لم يكن لحماس أي اتصال مع المؤسسة الرسمية المتمثلة برئيس الدولة أو بديوانه الرئاسي، وعندما جاء ياسين زائراً لأراضيها تمكن من الالتقاء بالرئيس السوري حافظ الأسد، وأسس معه علاقة جيدة، كان لها ما بعدها من الدعم والتأييد.

وفي تلك الزيارة أيضاً التقى ياسين بجميع الفصائل الفلسطينية المتواجدة في الساحة السورية، وبالأمين العام لحزب الله حسن نصر الله، وبالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة، الذين قدموا أمامه عروضاً عسكرية مختلفة، أهمها التدريبات القتالية، والطائرات الشراعية وكيفية استخدامها، في الحقيقة كانت رحلة تاريخية ناجحة بكل ما تعنيه الكلمة.

ركز ياسين، كما يروي أبو مرزوق، حديثه مع المؤسسات الرسمية للدول التي زارها على الشأن السياسي الفلسطيني العام، الذي بإمكانه أن يُعالج ولو جزئياً بعض القضايا المتعلقة باتفاقية أوسلو Oslo وممارسات السلطة ضدّ المقاومة المسلحة، والخلافات مع حركة فتح، والانتخابات ومستقبلها، بالإضافة إلى طلب الدعم والتأييد والمناصرة للقضية الفلسطينية بشكلٍ عام، وللمقاومة الفلسطينية بشكل خاص.

ومن إيجابيات جولة ياسين في الخارج، كما يصفها أبو مرزوق، أنه استطاع أن يحل بعض الإشكاليات التي طرأت نتيجة العمل وتدافعه المتواصل، واستطاع أن يسهم بشكل أساس في إعادة ترتيب البناء التنظيمي للحركة وتعزيز تماسكها، وضبط العلاقة بين الداخل والخارج. إذ إنه بعد خروجه من السجن كانت لديه تساؤلات حول على الوضع القائم، متعلقة باللائحة الداخلية للتنظيم، وعن وضعه التنظيمي؟ وحضور قطاع غزة في قيادة الحركة بشكلٍ عام. ونظراً لمكانة الشيخ ياسين الكبيرة داخل التنظيم وخارجه، فقد حظيت النقاط الجوهرية التي

يطرحها باهتمام كبير في الوسط القيادي، وصَبَّت رُؤى الشيخ ياسين في اتجاه تقوية التنظيم واستمراريته. واستطاع في النهاية، أن يشكل مع إخوانه مجلساً شورياً موحداً يشمل قطاع غزة والضفة الغربية والخارج.

يقول أبو مرزوق:

> وللأمانة التاريخية أقول استطاع الشيخ ياسين أن يجمع التنظيم ويعززه في قطاع غزة، بعد الضربات القاسية التي وجهتها السلطة الفلسطينية لحماس سنة 1996. إذ إنه حتى خروجه من السجن لم يُجمع في القطاع على قيادة واحدة؛ نظراً للمشكلات المعقدة التي تعرضت لها الحركة هناك، فقد قادها عدد من زعماء الحركة في مراحل مختلفة، لكنهم لم يستطيعوا توحيدها وجمع الصف فيها، وهم: المهندس إسماعيل أبو شنب، ود. عبد العزيز الرنتيسي، والأستاذ عبد الفتاح دخان، ود. إبراهيم المقادمة.

يذكر أبو مرزوق أسباب الخلافات داخل حماس، أن التنظيم كان يموج بالمستنكفين، نظراً لاختلافهم على الرؤية الاستراتيجية التي يجب أن تسير بها الحركة، نتيجة الضغط الرهيب الذي تعرضت له من قبل السلطة الفلسطينية، فبعضهم كان يتبنى الحلول السياسية، وبعضهم يريد عودة العمل العسكري بقوة، وآخرون يُنادون بضرورة المصالحة مع السلطة، وإيقاف العمل العسكري إلى مرحلة قادمة.

شهدت حماس في غزة كل هذه المشكلات بصورة غير عادية، لذلك لم يستطع أحد أن يُوحد صفها، ومع اشتداد التدافع الداخلي خرج الشيخ أحمد ياسين من السجن، وعمل على لملمة الجميع، فلم يترك وارداً ولا شارداً إلا وجمعه في التنظيم إلا من أبا، ومن هنا كانت انطلاقة التنظيم الكبرى، التي جعلته يزداد قوة وصلابة، ثم الانتصار الكبير في الانتخابات الفلسطينية سنة 2006.

الأردن وإبعاد قيادة حماس سنة 1999:

في سنة 1997، بعد شهر ونصف تقريباً من خروج أبو مرزوق من سجن نيويورك ومجيئه إلى الأردن، طلب الفريق سميح البطيخي منه مغادرة الأردن

بشكل منفرد، إلا أن أبو مرزوق استثمر زيارته للملك حسين، وأخبره بطلب البطيخي، فاستنكر الملك الطلب، وأكد لأبو مرزوق أن البلد بلده، ولا يوجد مشكلة في وجوده فيها، وانتهت المسألة، إلا أن السياسة العامة في الأردن كانت تقتضي عدم مكوث أبو مرزوق فيها، وقد يكون هذا هو سبب الطرد الأول سنة 1995، وإبعاده الثاني سنة 1999.

يقول أبو مرزوق:

في عام 1999، بدأت السلطات الأردنية تتحدث معنا حول التصريحات الإعلامية التي تخرج من مكتب الحركة في الأردن، وكان الطلب بشكل مباشر بألا نُعبر عن مواقفنا تجاه الأحداث المختلفة من داخل الأردن، وأن بإمكاننا فعل ذلك من أي مكان آخر، مثل بيروت أو دمشق.

في الحقيقة لم يكن طلبهم غريباً علينا في تلك المرحلة، فقد احتجت "إسرائيل" كثيراً على وجودنا في الأردن، وهاجمت تصريحاتنا الإعلامية، حتى منظمة التحرير لم تُطِق تواجدنا في الأردن، بل احتجت عليه كثيراً، وأبدت مواقف غير مرحب بها على صعيد الشأن الفلسطيني الداخلي.

وهذا ما أقرت به المخابرات الأردنية عندما صنفت إبعاد أبو مرزوق الأول عن الأردن ضمن خانة إلقاء عظمة لكلاب تنبح، فقد ذكر ماغّوو في كتابه "اقتل خالد":

أنَّ الشكاوى الإسرائيلية بشأن وجود حماس في عمّان في أثناء الاجتماعات الدورية بين المسؤولين الأردنيين والإسرائيليين قد كثرت، كما نقل مدراء الأجهزة الاستخباراتية العربية على لسان ياسر عرفات شكواه المريرة من وجود حماس في الأردن، ولما جاء الأمريكيون إلى الأردن، نقلوا شكوى الإسرائيليين وعرفات المريرة بهذا السياق، عندها وصل النباح إلى مستوى معين كما تُصنفه المخابرات المحلية، مما استدعى إلقاء عظمة للكلاب، ولأنَّ المشهد سيبدو سيئاً إذا قامت الأردن بإبعاد مواطنيها المرتبطين بحماس، كان ينبغي على غير الأردني أبو مرزوق أن يغادر حتى يبقى الأردن حليفاً مسؤولاً.[15]

[15] بول ماغّوو، **اقتل خالد: عملية الموساد الفاشلة لاغتيال خالد مشعل وصعود حماس**، ص 106.

شيئاً فشيئاً، كما يروي أبو مرزوق: ازداد الضغط الإسرائيلي على السلطات الأردنية، وأخذت الأمور اتجاهاً أكثر حدة، خصوصاً أنَّ اتفاقية وادي عربة تقتضي ألا يُسمح لنا بممارسة نشاطاتنا الإعلامية، وإبراز دورنا الوطني المناهض للاحتلال وممارساته غير القانونية.

وبينما كنتُ برفقة الأخوة خالد مشعل، وإبراهيم غوشة، وسامي خاطر، وعماد العلمي، في زيارة لطهران صدرت مذكرة من النائب العام الأردني باعتقال أعضاء المكتب السياسي لحركة حماس، وتمّ على إثرها مداهمة مكاتب الحركة، ومصادرة ما فيها من ملفات ومعدات، عندها تباينت الآراء التي تدعونا لاتخاذ الموقف الأمثل إزاء ما حدث بحقنا، أهمها قرار المكتب التنفيذي للحركة، الذي رفض عودتنا للأردن، وقالوا إن "أرض الله واسعة فهاجروا إليها"، ولا تحصروا أمركم في جهة واحدة، فأنتم موجودون في كل مكان، فلا داعي أن تكونوا في الأردن.

للأسف كان هذا رأي المكتب التنفيذي لبلاد الشام، وهو شاذ بالنسبة لنا، ولا يُعبر عن الإخوان المسلمين، فلأول مرة يُفكر أحدهم بهذه الطريقة، لأنه عبر عن رأى الحكومة الأردنية، وليس رأي الإخوان المسلمين، الذين ضجروا جميعاً من موقف الحكومة تجاه أعضاء المكتب السياسي للحركة كما أنَّ جميع أعضاء المكتب السياسي، عدا أبو مرزوق والعلمي مواطنون أردنيون، ولهم الحق الطبيعي في الرجوع إلى بلدهم، ولا يستطيع أحد أنْ يمنعهم من العودة، بل إنَّ عدم عودتهم إلى الأردن يترتب عليها مسائل قانونية، متعلقة بالجنسية، والإقامة، وحقوقهم الطبيعية كمواطنين، وبالتالي قررنا الذهاب إلى الأردن.

ومع انتشار الخبر إعلامياً، سافر الأخ عماد العلمي من طهران إلى سورية، للنظر في إمكانية استضافة أبو مرزوق، فرحب السوريون به. ومع تزامن قبول السوريين، واشتداد تداول القضية على الإعلام، أبدى الإيرانيون موقفاً سلبياً من استمرار وجودنا على أراضيهم، فأخذوا يُلمّحون لنا بأنَّ مدة الزيارة انتهت، وأنَّ

من وصفوهم "المنافقين" قد يُقدمون على عمليات اغتيال، وأنَّ الحكمة تقتضي الإسراع في مغادرة البلاد، فتشاورنا، وقررنا أنْ نذهب إلى الأردن، وجعلنا ذلك طيّ المفاجأة.

ومن الآراء التي عبَّرت عن نفسها آنذاك رأي الشيخ فيصل مولوي، فقد استشرته بشكلٍ شخصي، بعيداً عن موقعه المتقدم في مكتب الإرشاد، فقدم نصيحته التي كانت تُغلّب المصلحة العامة على الخاصة، وظهر أيضاً رأي الأستاذ عبد المجيد ذنيبات، مراقب الإخوان المسلمين في الأردن، الذي بدا متحمساً إلى عودتنا، غير أنه عدل عن هذا الرأي عندما رأى تشدد الحكومة وحدتها في الموضوع، وأنّها أعدت تُهماً وقضايا ضد أعضاء المكتب السياسي، ففضل أن يبقى أعضاء المكتب السياسي في الخارج، واستشار الأخ أبو الوليد عدداً من المسؤولين في الدول العربية.

بعد النظر في الآراء، وتداول القضية وتداعياتها المتعددة، قررنا العودة إلى الأردن، حجزنا التذاكر إلى مطار عمّان، وفي غضون ساعات كنا هناك، مُنعتُ لوحدي من الدخول إلى الأراضي الأردنية، وتم ترحيلي إلى الإمارات، ثم إلى سورية، أما الإخوة الآخرون، فقد تم اعتقالهم في المطار، وبعدها تم احتجازهم في السجون الأردنية، فجميعهم يحمل الجنسية الأردنية، ولا مجال لطردهم خارج البلاد.

نُقل إلى السجن الأخوة إبراهيم غوشة، وخالد مشعل، وسامي خاطر، أما الأخ محمد نزال فقد اختفى بشكلٍ كامل، وتم اعتقال الأخ عزت الرشق في مدينة الزرقاء، بحثوا عن نزال في كل مكان إلا أنه استطاع أن يختفي دون أن يصلوا إليه، كما اعتقلوا بعض العاملين في مكاتب الحركة وبعض المرافقين.

وبعد أن استمر الاعتقال عدداً من الأيام، وتزايدت التهم والافتراءات على حماس، استوجب عليها أن تجتمع لمتابعة الموضوع ومعالجته، جاء بعض الإخوة المسؤولين إلى سورية، اجتمعنا بشكلٍ عاجل وطارئ، وبعد مناقشة الموضوع من اتجاهات عدة، قررنا أن نقود المعركة بطريقة استيعابية، لأننا لسنا بحاجة إلى إضافة حروب جديدة للشعب الفلسطيني، بالتأكيد رافق الاعتقالات الكبيرة

احتجاجات كبيرة داخل الشارع الأردني والفلسطيني، وكان هناك ردود واضحة على الأكاذيب التي ألصقت بالحركة، كالعثور على مجموعة كبيرة من الأسلحة تعود لحماس، ورصد علاقة حماس غير المرغوب فيها مع العشائر والشخصيات الأردنية.

مكث الإخوة المعتقلون في السجون الأردنية ثلاثة شهور تقريباً، وبعدها تبلور اتفاق بين الأردن وقطر بترحيلهم إلى قطر بإشراف أو طلب أمريكي، حيثُ رُحلَ الجميع بمن فيهم المرافقون، واستقروا هناك فترة زمنية معينة، وبعد عام أو يزيد انتقلوا إلى سورية.

صدر قرار الإبعاد بعد وفاة الملك حسين بستة أشهر تقريباً، ولو كان موجوداً ما اتخذ هذا القرار، بالإضافة إلى أنَّ البطيخى لم يعد موقعه في القرار الأردني بحجم موقعه السابق بعد وفاة الملك.[16]

سابعاً: خيار المضطر:

"في قلب كل شتاء ربيع يختلج، ووراء نقاب كل ليل فجر يبتسم"

(جبران خليل جبران)

بعد أقل من سنتين، أبعدت السلطات الأردنية أبو مرزوق مرة أخرى عن أراضيها، فكانت سورية محطة جديدة في تاريخه النضالي، بدأت سنة 1999 وبقيت شعلتها حتى سنة 2011. بالتأكيد لم تكن دمشق خيار أبو مرزوق الطبيعي ليُمضي السنوات الطويلة فوق أراضيها، ولو كان مخيراً لاختار قريته "يبنا" ليعيش فيها بسلام، أو القدس ليتنفس عبق التاريخ بين جنباتها، غير أنَّ سورية كانت الأقرب إلى قلبه بعد فلسطين الجميلة، وهذا ما بدا واضحاً على لسان أبو مرزوق ومشاعره المتدفقة حين يتحدث عن سورية وتاريخها العريق...

[16] مقابلة مركز التأريخ والتوثيق الفلسطيني مع الدكتور موسى أبو مرزوق، تشرين الأول/ أكتوبر 2012. (بتصرف)

يقول أبو مرزوق:

عبر التاريخ وسورية تتعاقب عليها الحضارات، وتختلط فيها الثقافات الإغريقية والرومانية والفارسية والآشورية والفينيقية وغيرها، وعند الفتح الإسلامي جاءت الهجرات العربية لسورية في غالبها من أهل اليمن، بينما أهل نجد ذهبت هجرتهم إلى العراق بلاد الرافدين، وسكن بلاد الشام مئات من صحابة رسول الله، وحينما جاء العهد الأموي كان العنصر العربي طاغياً في كل ربوع سورية، وهو عنصر مضياف كريم شجاع.

لذا أصبح القادم إلى سورية أو الشام عموماً لا يشعر بالغربة؛ لأنه مجتمع في الأصل بُني عبر هجرات متتالية من اليمن والجزيرة العربية، ومن جاء مدداً لأبي عبيدة من جيوش العراق ومختلف أنحاء العالم الإسلامي، كما أنَّ الفتوحات استكملت في عهد الدولة الأموية، وبذلك استوعب الشعب السوري كل من جاءه دون أن يُشعره بالغربة، فاندمج المهاجر معهم، ورفض العودة لوطنه القديم، واتخذ الشام موطناً.

إنّ الهجرات لم تقتصر على ما تم ذكره من نماذج، بل شهد التاريخ هجرات من الألبان والشركس والشيشان والأرمن، وهجرات من المغرب والجزائر وليبيا، والفلسطينيين إبان النكبة الكبرى سنة 1948، والعراقيين إبان حرب 1991، وهجرة اللبنانيين في أثناء الاجتياح الإسرائيلي 2006، وهجرة المعارضة العربية التي استوطنت سورية من البحرين واليمن والسعودية واريتيريا، فحب سورية ملأ أفئدة من سكنها وعاش بين أهلها، لذا بعد استقلال الجزائر رفض الجزائريون أصحاب وأبناء عبد القادر الجزائري مغادرة سورية إلى الجزائر، وللحق أقول فإن سياسات الدولة القومية في العصر الحديث ساعدت على ذلك، حيث يستطيع أي عربي أن يدخل سورية، ويسكن فيها ويتمتع بحق التعليم والعلاج كأي مواطن سوري، سورية أرضاً وشعباً حاضراً وماضياً لها أيادي بيضاء، وكرم لا نظير له على المنطقة كلها والعالم القديم بكامله.[17]

[17] مراسلة للكاتب، غزة، مع الدكتور موسى أبو مرزوق، الدوحة، تشرين الأول/ أكتوبر 2018.

حماس تقرر العمل في سورية:

مثلت الصورة التاريخية الواضحة لدى أبو مرزوق أحد الأسباب الرئيسة خلف قراره بالعمل الحركي في سورية، فحماس لم تبدأ العمل هناك بسبب استقرار أبو مرزوق على أراضيها، بل شهدت سنة 1991 بداية العمل التنظيمي، بقرار مباشر من رئيس مكتبها السياسي آنذاك د. موسى أبو مرزوق.

يقول د. مصطفى اللداوي مدير مكتب أبو مرزوق الأسبق:

تميز أبو مرزوق بقرارته الحاسمة والسريعة، والقوية والحكيمة، التي لا تخلو من المغامرة، ولا تغيب عنها روح التحدي، ولعل طبيعته العملية ساعدته في تحقيق النجاحات المتوالية، ومراكمة الإنجازات الكبيرة، وبناء المؤسسات الضخمة، التي تدين في كثيرٍ منها بالوفاء والتقدير له، وهو ما عُرفَ به أبو مرزوق وتميز، فكانت لا تبيت قراراته، ولا تتأخر مشاريعه، ولا يتردد في أحكامه، ولا ينشغل عن مهامه، أياً كانت الظروف والتحديات، ولعله في قراراته يرى النهايات ويستشرف المآلات، ويرى ما لا يرى غيره، ولهذا يقرر وهو مطمئن، ويوافق وهو واثق، لأنه يعرف النتائج ويستبصرها، ويدرك الخواتيم ويستيقنها.

من أبرز قرارات أبو مرزوق الصائبة والحكيمة، والجريئة والقوية، كان قراره اعتماد دمشق ساحةً من ساحات العمل، فلم يكن لحماس أي وجودٍ في سورية قبل سنة 1991، وهي السنة التي أبعدتني فيها سلطات الاحتلال الإسرائيلي من سجن غزة المركزي برفقة الأخوة عماد العلمي ومصطفى القانوع وفضل الزهار. وبدا صعباً على قيادة الحركة الناشئة أن تُفكر بالعمل في سورية، أو يقبل بعض أعضائها بالإقامة فيها، خوفاً من السياسة الأمنية الضابطة للأوضاع فيها بعد أحداث حماة الشهيرة، وأوضاع حركة الإخوان المسلمين، فحماس وفق ميثاقها التأسيسي تعرف نفسها بأنها الذراع العسكري لحركة الإخوان المسلمين في فلسطين.

لهذا كان من الصعب على أحدٍ من قيادة حركة حماس أو كوادرها أن يفكر بالعمل أو الإقامة في سورية، لكنني وقد دخلت العاصمة السورية دمشق لأول

مرة قادماً من الخرطوم في شهر حزيران/ يونيو سنة 1991، رأيت بعد جولةٍ فيها، وزياراتٍ عديدة قمت بها لمكاتب التنظيمات الفلسطينية وقادتها، وفي المقدمة منهم الشهيد د. فتحي الشقاقي، الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي، الذي شجعني على الإقامة في سورية والعمل فيها، وبشرني بأنها ساحة واعدة وأرضٌ خصبة للعمل الوطني الفلسطيني والقومي العربي.

خلال هذه الفترة كنت أتواصل مع مكتب أبو مرزوق في أمريكا، حيث رغب أن ألتحق به هناك، وقد كنت حينها أصغر المبعدين سناً، وطلب مني أن أرسل له بعض أوراقي الرسمية، إلا أنني أبديت له رغبتي في البقاء في سورية، وعرضت عليه إمكانية العمل فيها، إلا أنه لم يقرر في الأمر، وربما لم تكن فكرة التوسع في عمل حركة حماس قائمة في تلك المرحلة.

لكن عندما كلفت الحركة الأخوين خالد مشعل ومحمد درويش اللقاء بي وبالأخوة المبعدين في دمشق، عدا العلمي الذي بقي في الخرطوم قبل انتقاله إلى طهران، طرحت عليهما فكرة العمل في سورية، وإمكانية فتح مكتبٍ فيها، وشرحت لهما آفاق الوجود التنظيمي الفلسطيني، وكان ذلك قبل انعقاد مؤتمر مدريد للسلام Madrid Conference في 1991/10/31، وقبل انعقاد مؤتمر طهران الذي عقد بالتاريخ نفسه، وفيه تشكل إطار الفصائل الفلسطينية العشر.

إلا أن الأخوين الكريمين استعظما الأمر، وظنا أن هذه مغامرة غير مأمونة، وفكرة غير مدروسة، وأنه لا ينبغي الاستعجال بها، أو الموافقة عليها قبل نضوج الفكرة ووضوح الرؤية، وبالرغم من إلحاحي عليهما إلا أنهما لم يجيزا لي الانطلاق بالعمل في سورية، ووعداني بالرد علي في أقرب وقتٍ ممكنٍ.

أجريت العديد من المشاورات مع الإخوة في قيادة الحركة قبل أن يتصل بي أبو مرزوق من ولاية لويزيانا الأمريكية، يخبرني فيها بموافقته على العمل في سورية، والمباشرة في دراسة الأوضاع فيها، ودراسة آفاق فتح مكتبٍ للحركة في دمشق.

وعلمتُ فيما بعد أن قرار أبو مرزوق قد جاء إيجابياً وحاسماً بعد تشاورٍ مع د. فتحي الشقاقي، الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي رحمه الله، حيث أعطى موافقته على العمل في ظلّ معارضة شديدة له في أوساط المكتب السياسي، وشكوك كثيرة أبداها المسؤولون، خصوصاً المقيمون في العاصمة الأردنية عمّان.

(انتهى كلام اللداوي)

إلا أن شكوك الكثيرين ومخاوفهم تبددت كما يُؤكد اللداوي بعد مشاركة وفد من قيادة الحركة في مؤتمر طهران الذي أسس لإطار القوى الفلسطينية العشر، والتي كان من بينها حركة حماس.

وعن أولى الخطوات العملية التي قام بها أبو مرزوق ليفتح أبواب العمل داخل الساحة السورية، يقول أبو مرزوق:

حماس حتى الثمانينيات لم يكن لها تواجد في سورية، وهناك العديد من المنظمات التاريخية في مخيمات سورية مثل: الصاعقة، وحزب البعث العربي الاشتراكي، والجبهة الشعبية، وفتح، والقيادة العامة، والديموقراطية، والثوري، وجبهة التحرير العربية، وجبهة التحرير الفلسطينية، وجبهة النضال الشعبي، كلهم يعملون في الساحة السورية، لا سيّما في المخيمات الفلسطينية.

لا بدّ للعمل في سورية من البوابة الرئيسية وهي الدولة، فبعد الانتفاضة الأولى، وبروز حماس كأهم فصيل فلسطيني فاعل في الأرض المحتلة، وبداية بروز قيادته التي عملت بسرية كاملة لسنوات، طلبنا زيارة سورية، والتقينا بعبد الله الأحمر، الأمين العام المساعد للقيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي، واللقاء الثاني مع عصام القاضي، عضو القيادة القطرية والأمين العام لمنظمة الصاعقة، وتلاها لقاءات مع القيادة العامة.

ويؤكد أبو مرزوق الدور الإيجابي الذي لعبه الأخ أبو جهاد أحمد جبريل في إقناع القيادة السورية بفتح أبوابها للحركة:

وهكذا دخلنا سورية على أساس أن غطاء وجودنا تابع للقيادة العامة، وحملنا بطاقاتها، وأنشأنا مكتباً للحركة برئاسة الأخ مصطفى اللداوي في دمشق، وتمّ

ترسيم العلاقة مع فرع فلسطين، وهي الجهة السورية المسؤولة عن العمل الفلسطيني في سورية.

من هنا، بدأت علاقاتنا متدرجة في التعامل مع مخيمات سورية، سواء بالزيارات أم المحاضرات والأنشطة المركزية، ومما عمق العلاقة مع الدولة السورية خروج المبعدين ورسالة الأستاذ أبي أسامة [عبد الفتاح دخان] للرئيس حافظ الأسد، الذي عين وزير الإعلام محمد سليمان رسمياً للتعامل السياسي مع الحركة، وبدأت في الظهور السياسي والإعلامي والفصائلي، وتركزت اللقاءات مع الفصائل الفلسطينية على أساس صيغ تحالفية منذ البداية، وبدأت المخيمات في سورية تميل للحركة وتأييدها واحتضان أنشطتها وفعالياتها، وأصبح هناك مئات العاملين في صفوفها.[18]

الزيارة الأولى لدمشق:

قبل أن تفتح العاصمة السورية دمشق أبوابها أمام حماس ورموزها، وقبل أن تكون مقصد أبنائها، قرر أبو مرزوق مع أعضاء المكتب السياسي زيارتها نهاية سنة 1991، فنسق اللداوي لزيارتهم، إلا أن أبو مرزوق سبقهم بوصولها، فدخل مطارها بوثيقة سفرٍ مصرية، ولم يكن حينها معروفاً بشخصه وانتمائه لدى الجهات الأمنية السورية، فأخبره ضباط الأمن العام السوري أنه لا يستطيع دخولها بهذه الوثيقة دون برقيةٍ مسبقة، تصدر عن الجهات الأمنية السورية المختصة.

يقول اللداوي:

سحب أبو مرزوق وثيقة سفره المصرية، وأبرز لهم وثيقة الإقامة الدائمة في أمريكا، فأجابوه بأنه لا يستطيع الدخول أيضاً بها دون الحصول على تأشيرة رسمية صادرة عن سفارةٍ سورية، فما كان منه إلا أن طوى الوثيقتين معاً، وأخرج جواز سفرٍ يمني قديم ظنّ أنه لن يكون مضطراً إلى استخدامه، إلا أنه وجد أنها الوثيقة الوحيدة التي خولته الدخول إلى سورية دون تأشيرة،

[18] مراسلة للكاتب مع الدكتور موسى أبو مرزوق، تشرين الأول/ أكتوبر 2018.

كون النظام السوري يسمح لجميع المواطنين العرب بالدخول إلى سورية دون تأشيرة مسبقة.

هذه أول مرة يدخل فيها أبو مرزوق العاصمة السورية دمشق في ظلّ موقعه الأول في حماس، ولكنه دخلها وكأنه يعرفها، وانتظرته في صالة الوصول فرأيته يخرج إليها معتمراً قبعةً سوداء، كان لها بعد ذلك في دمشق قصة، رأيته باشّ الوجه، نشط الحركة، يجر بيده حقيبةً وكأنه قد اعتاد السفر بها.

صافحته وقلت له حمداً لله على السلامة، وانتقلنا بسيارة أجرة قديمة صفراء اللون، من سيارات دمشق الشهيرة، ووصلت وإياه إلى مخيم اليرموك حيث بيتي الذي كان أيضاً مقر عمل حماس في دمشق.

وصلنا بيتي في الطرف الجنوبي لمخيم اليرموك بمحاذاة حي الحجر الأسود بدمشق، حيث توقعت أن يطلب مني أبو عمر أن يرتاح من عناء رحلته الطويلة، إلا أنه قال لي أنه لا يشعر بتعبٍ أو رغبةٍ في النعاس جراء رحلته، فقد اعتاد أن ينام في أثناء السفر، فما إن يجلس في مقعده المخصص له حتى يغط في نوم عميقٍ، مستغلاً كل لحظةٍ يكون فيها قادراً على النوم أو الاسترخاء، هذا ما أدركتهً بعد ذلك خلال مرافقتي له، وتنقلي معه، حيث أنه كان ينام في السيارة دقائق معدودة ما إن يدخل فيها، ولا يستيقظ إلا عند وصوله إلى المكان الذي يقصده.

وفي المقابل وجدته يقضي الساعات الطوال يسهر ليلاً وينشط نهاراً، في الليل يتابع العمل في أمريكا لاختلاف التوقيت، وفي النهار يتابع مختلف العاملين معه في الدول العربية وأوروبا، إلى الدرجة التي أتساءل فيها متى ينام وكم ينام، إذ ما إن دخل الغرفة التي استضفته فيها، والتي لم يكن فيها سوى فرشاتٍ وحصيرٍ بلاستيكي، وقد ظننت أنه سينام، فإذا به يخرج أوراقه ومفكرة هاتفه، وبدأ يعد معي برنامج الزيارة، ويشرح لي ما لم أكن أدركه يومها الآفاق التي من الممكن أن تكون للحركة في دمشق.

لقاء عبد الله الأحمر:

ذهبنا إلى لقاء عبد الله الأحمر، الأمين العام المساعد لحزب البعث العربي الاشتراكي، بسيارة أجرة صفراء، وقفت بعيداً عن مدخل قيادة الحزب، إذ ما كانت تقوى سيارةٌ مدنيةٌ على الاقتراب أو الوقوف بالقرب من المؤسسات الأمنية والرسمية للدولة دون علمٍ أو تنسيقٍ مسبق.

كنا خمسة أشخاص فقلت لأبو مرزوق، نذهب في سيارتين لظني أنه لن يقبل أن يكون محشوراً وإخوانه في سيارةٍ واحدة، فتفاجأت بإصراره أن نذهب جميعاً في سيارةٍ واحدة ولو كنا فيها مضغوطين، وشعرت بسعادةٍ غامرةٍ لمظاهر التواضع والبساطة التي رأيتها منه.

دار حديثٌ طويل بين أبو مرزوق والسيد عبد الله الأحمر، وكان معنا السيد عصام القاضي، الأمين العام لمنظمة الصاعقة، واستغرق اللقاء أكثر من المدة المقررة، وفي طريقنا إلى البيت قال لي أبو مرزوق إنه نسي قبعته في مكتب الأحمر، فقلتُ له صعب علي أن أعود فأطلبها، فسكت على مضض.

لكن عصام القاضي الذي اتصل بي ليخبرني بوجود القبعة، بدا فرحاً سعيداً حين طلب مني أن أمر عنده في مكتبه، فظننت أنه يريد أن يعيد إلينا قبعة د. موسى، ولكنه كان حريصاً أن يخبرني بأن عبد الله الأحمر تفاجأ بمستوى الوعي القومي والعربي بالإضافة إلى الفهم الإسلامي لدى أبو مرزوق، وأنه كان سعيداً بمنطقه وفكره، وشعر باطمئنانٍ على القضية الفلسطينية في وجود رجالٍ أمثاله، واستبشر خيراً بمستقبل حركة حماس.

وأكد القاضي أن السيد عبد الله الأحمر نقل فحوى اللقاء وانطباعه عن الزيارة والحوار للرئيس حافظ الأسد، الذي طلب من نائبه عبد الحليم خدام استقبال أبو مرزوق والوفد المرافق له، وهذا ما كان فعلاً في اليوم التالي، حيث التقى أبو مرزوق بنائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام، ولم يخفِ حرص الرئيس الأسد على نجاح زيارة وفد حماس إلى دمشق، ولمست آثار رعاية الرئيس الأسد، حيث وجدت الكثير من التسهيلات الرسمية لعملي الجديد ممثلاً لحركة حماس في دمشق.

وأذكر على مدى سنوات أنه ما التقيت بالرجلين الأحمر وخدام إلا وذكراني بأبو مرزوق، ودائماً كانا يطلبان مني توصيل سلامهم له، ويحرصان على الإشادة بفكره ووعيه، حيث أنه تجاوز برأيهما كثيراً الأطر والأحزاب الدينية إلى رحابة الفضاء القومي العربي، وبعد ذلك تكررت زيارات أبو عمر إلى دمشق، ولقاؤه بالرجلين وغيرهما.

(انتهى كلام اللداوي)

دمشق.. آفاقٌ رحبةٌ ومستقبلٌ واعدٌ:

عاد أبو مرزوق بعد انتهاء زيارة دمشق إلى واشنطن، ولم يسمع اللداوي انطباعاته الحقيقية عن الزيارة، ولا آماله المتوقعة في سورية، ولم يعلق كثيراً على زيارته ولقاءاته بقادة الفصائل الفلسطينية، ولكن ما إن وصل أمريكا حتى تواصل مع اللداوي أخوة من الأردن لتسليمه حاسوب وطابعة بتوصية خاصة من أبو مرزوق.

يقول اللداوي:

بعد أيامٍ أرسل أبو مرزوق من واشنطن د. ياسر بوشناق ليساعدني في تنظيم العملِ الإداري في دمشق، وليضع معه خطة العمل المطلوبة، وفي خلال مدةٍ قصيرةٍ بعد الزيارة وصل أشخاص عديدون من أكثر من مكانٍ، كل واحد منهم مختص في مجال معين، ويعمل في شأنٍ مختلف، وقد كلفوا تقديم المساعدة لي للنهوض بالعمل في سورية.

أدركتُ أن أبو مرزوق يعرف ماذا يريد، ويعلم إلى أين سيمضي في سورية، وما التوقعات التي ينتظرها مستقبلاً، والآمال التي يرجوها من وجود حماس في سورية، ورأيتُ أنه يهتم بالموضوع بنفسه، ويرسل الخبراء والمختصين ليطمئن على أنه سيكون في سورية للحركة بعد فترةٍ مكتبٌ واعدٌ، وهذا ما كان.

أبو مرزوق في دمشق:

لم يمضِ عام على استقرار أبو مرزوق في سورية حتى اشتعلت الانتفاضة الفلسطينية الثانية أواخر سنة 2000، وبدأت الفصائل الفلسطينية تلقن الاحتلال الصهيوني الضربات المتتاليات، وضغط العمليات الاستشهادية على المشهد المقاوم بشكل واضح، وأصبح الأمن الإسرائيلي الداخلي في أضعف مراحله وأسوئها على الإطلاق، وهنا برزت حماس كأحد فواعل الانتفاضة ووقودها المستمر.

يقول أبو مرزوق:

عقب اندلاع الانتفاضة الثانية سنة 2000 شهدت الأراضي الفلسطينية المحتلة عدداً كبيراً من العمليات الاستشهادية، حيث نفذت حماس 36 عملية، وفتح 16 عملية، والجهاد الإسلامي 8 عمليات تقريباً، ولأول مرة في تاريخ الصراع يسقط قتلى من الجانب الصهيوني أكثر من الجانب الفلسطيني.

صحيح أن القتل ليس هدفاً أو معياراً لتحديد طبيعة الصراع أو لتحقيق صورة الانتصار الذي يسعى إليها الفلسطينيون، لكن الذي دفعهم لذلك هو حجم القهر، وأساليب الظلم التي يُمارسها الاحتلال بحق الأطفال والشباب والشيوخ.

من الذي دفع الشاب أو الشابة إلى أن يتحزم بحزام الموت، ويذهب إليه وهو مبتسم؟ من الذي عكر صفو حياتهم بالاعتقالات، والقتل، والتشريد، ومنعهم من أبسط الحقوق الإنسانية؟ من الذي يسعى بالوسائل كافة من أجل إسقاط الشباب الفلسطيني في وحل الرذيلة؟ بلا شك الاحتلال هو المسؤول الوحيد عن ذلك.

حجم العمليات الاستشهادية كمّاً ونوعاً انعكس إجراماً وتشدداً على الشعب وقياداته الوطنية من أجل إيقاف العمل المسلح، فكان أن تراجع الإسرائيلي عن تأييد اتفاقية أوسلو، وبدأ في بناء جدار الفصل العنصري، وأقدم جنوده على اقتحام الضفة الغربية، وفرض معركة كبيرة عند بوابات المسجد الأقصى المبارك، وللحقيقة كان للفصائل المقاومة، وللشرطة الفلسطينية آنذاك دور بارز في التصدي لاقتحامات الاحتلال المتكررة.

وفي خضم هذه الأحداث شهدت سنة 2002 حوارات مع فتح حول كيفية انضمام حماس لمنظمة التحرير، وسبل إيقاف العمليات الاستشهادية، وآليات تطوير العلاقات الثنائية بين الحركتين، وقد شاركتُ وفد الحركة في جميع اللقاءات الحوارية تقريباً، وكان زكريا الأغا، وأبو علاء أحمد قريع أبرز ممثلي حركة فتح، وقد رعا هذه المفاوضات اللواء المصري عمر سليمان رحمه الله وللأمانة التاريخية كان سليمان حريصاً على الوحدة الفلسطينية، وساعياً نحو الإجراءات التي تقي فتح وحماس من المواجهة، وكان يعمل جاهداً على أن تبقى حماس بعافية، ولم يرغب أن تنضم حماس إلى منظمة التحرير؛ حتى تتطابق سياساتهما مع سياسات المنظمة التي أبرمت اتفاقيات عدة مع الاحتلال.

ولهذا كان يرد دائماً "عندما تُغيروا استراتيجيتكم تدخلوا المنظمة"، وفي ظلّ البرامج المتباينة كان ينظر إلى المستقبل بعين التكامل الاستراتيجي بين المقاومة والتفاوض، لذلك كان في الوقت نفسه يهدف إلى إيقاف العمليات الاستشهادية، وتعزيز اتفاقية أوسلو، ولأن المزاج الشعبي العارم يرفض اتفاقية أوسلو ومفرزاتها، واندفاع الشباب نحو أي فصيل لمقاومة الاحتلال من خلاله، ووجود شبه إجماع في قيادة الحركة على تكتيك العمليات الاستشهادية، كان من الصعب الاستجابة لوقفها؛ وعليه لم تنجح حوارات فتح وحماس في ذلك الوقت.

لستُ مع العمليات الاستشهادية التي تستهدف المدنيين، وإنما أدعم جميع أشكال المقاومة التي تستهدف العسكريين والمستوطنين، لأن استهداف المدنيين يُضعف المقاومة، ويُعرضها للمسألة القانونية، فضلاً عن الافتراءات الإسرائيلية.[19]

(انتهى كلام د. أبو مرزوق)

[19] مقابلة للكاتب مع الدكتور موسى أبو مرزوق، القاهرة، تشرين الثاني/ نوفمبر 2018.

تأسيس الفصائل العشرة:

بعد مؤتمر مدريد 1991 واتفاقية أوسلو 1993 قدمت حماس أفكاراً تتعلق بتكوين جبهة وطنية؛ للوقوف كتلة واحدة في وجه الاتفاقيات الهزلية التي أبرمتها منظمة التحرير على حساب الشعب الفلسطيني وحقوقه الكاملة، وعلى هذا الأساس شاركت عشر فصائل فلسطينية في مؤتمر طهران، وبلورت موقفاً مناهضاً لمواقف فتح، وشكلت الفصائل العشرة (حماس، والجهاد الإسلامي، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والجبهة الشعبية – القيادة العامة، والحزب الشيوعي الفلسطيني الثوري، وجبهة التحرير الفلسطينية، ومنظمة الصاعقة، والجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين، وجبهة النضال الشعبي الفلسطيني، وحركة فتح الانتفاضة).

وبعد وقت ليس بالطويل، انسحبت الجبهة الشعبية والديموقراطية من التجمع الوطني؛ تحاشياً من تغول حركة فتح على حقوقهما في الموازنات المالية، والاعتبارات الوطنية، لا سيّما وأنهما أقدما على تلك الخطوة من قبل، وانضما إلى جبهة الرفض لقرارات منظمة التحرير، بعد أن انسحبا من عضوية المنظمة، فكانت النتيجة مؤلمة جداً، حيث عانى الفصيلان كثيراً من الاتهامات السياسية، ثم رجعوا إلى صفوف المنظمة بعد تجربة مريرة؛ لذلك آثروا السلامة، وانسحبوا من عضوية الفصائل العشرة؛ للمحافظة على العلاقات مع فتح داخل المنظمة، ومع هذا بقي التوافق الوطني فاعلاً في صفوف الفصائل الأخرى إلى يوم خروج حركة حماس من سورية.

يقول أبو مرزوق:

حظي التوافق الفلسطيني الذي تبلور ضدّ اتفاقية أوسلو وإفرازاتها المنُقصة لحقوق الشعب الفلسطيني، بالتفاف جماهيري واسع، لدرجة أن أغلب فلسطينيي الوطن العربي وأوروبا وأمريكا شاركوا بإيجابية واضحة في مؤتمرَي الوطني الفلسطيني في 1996/4/22، والشتات الفلسطيني في 2008/1/22، وكلاهما كان في سورية. لقد عبر فلسطينيو الخارج عن احترامهم البالغ للفصائل العشرة ومواقفها

التي تُحافظ على مقاومة الاحتلال الصهيوني بالوسائل كافة، وترفض التنازل عن فلسطين أو عن جزء منها، وهو السبب الذي أهل هذه الفصائل للمشاركة في مؤتمر القمة، الذي دعت إليه قطر بشكل عاجل لمناقشة القضايا الفلسطينية المتطورة والحرب على غزة في 2009/1/16، وذلك لامتناع السلطة الفلسطينية عن الحضور للمؤتمر نتيجة الضغوطات التي مورست عليه من قبل مصر والسعودية، وهكذا بقيت المنظمة تعيش تحت موازنات الدول العربية ولم تتحرر من هذه الضغوط إلى يومنا هذا.

كان توافقاً فصائلياً وجماهيرياً هائلاً، إلا أنه لم يقدر على إحداث عرقلة حقيقية في مسار أوسلو ومجرياتها الميدانية، ومردود ذلك أمران؛ الأول، ضعف شوكة المقاومة الفلسطينية في الخارج؛ نظراً لأسباب عدة، أبرزها أن الدول العربية أحكمت السيطرة على حدودها، ومنعت المقاومة من ممارسة دورها ضدّ الاحتلال، الثاني، أن أغلب التوافق حدث خارج فلسطين المحتلة وليس داخلها وهذا يُضعف الموقف المعارض؛ لأنه بحاجة إلى أدوات فعل داخلية قادرة على التأثير، وعليه فقد استطاعت م.ت.ف دخول المنظومة الدولية إقليمياً ودولياً، لكن الثمن الذي دُفع مقابل ذلك باهظاً جداً؛ فقد حصلوا على شرعية فلسطينية للتفاوض نيابة عن الفلسطينيين، واعترفوا بشرعية "إسرائيل"، وتنازلوا عن 78% من فلسطين التاريخية.

لقد استفردت منظمة التحرير بمصير الشعب الفلسطيني، واستغلت وجود الاحتلال الصهيوني الذي يمنع فلسطينيي الخارج، والبالغ عددهم سبعة ملايين نسمة تقريباً، بالتواصل الشرعي والقانوني مع فلسطيني الداخل، والبالغ عددهم نحو سبعة ملايين نسمة أيضاً، وهذا لم يُمكن الشعب الفلسطيني من اختيار قيادته الرشيدة التي بإمكانها تمثيل توجهاته الميدانية، والقرارات المصيرية، كما أن مصالح الدول العربية أسهمت بشكل مباشر في تعزيز المنظمة وشرعيتها؛ لذلك فقد تعمدت أن تصنع لها سلطة داخل الأراضي الفلسطينية لتقطع الطريق أمام أيّ جسم فلسطيني آخر، وهذا يُفسر لنا عدم قبول فوز حماس في انتخابات 2006، ووضع معوقات كبيرة أمامها، أبرزها الحصار الذي بدأ عقب فوز الحركة حتى يومنا هذا.

سعت حماس أن تُشارك في قيادة الشعب الفلسطيني بدافع الحرص على المصلحة العامة، ومن خلال الصعوبات والمعوقات والتجربة والأداء، وصلت إلى قناعة تامة أن "الشراكة" الوطنية هي الأساس للقيادة الرشيدة، ومقاومة الاحتلال لكافة السبل المتاحة من خلال الإجماع الوطني، وأن الانقسامات الداخلية تُفتت محصلة القوة وعناصرها الرئيسية، فالوحدة تجمع الناس حول الفكرة وتقويها، والتفرد بالحكم، يُقصر من عمر الوحدة ويُميتها، وإن أحد أهم مرتكزات الشراكة الأساسية هي قبول الآخر والثقة به، وعند استحضار ضعف الدول المحيطة بفلسطين، فإن الشراكة والثقة والعمل التكاملي هو بالضبط ما يحتاجه الفلسطينيون لإدارة الصراع بشكل أفضل، وإذا صدر أي تقصير من حركة حماس على وجه التحديد في قطاع غزة، فإن عليها أن تستدركه بأسرع وقت ممكن، وتُعالجه في إطار وطني.

إنَّ التوجه الرسمي لحماس فيما يخص قيادة الشعب الفلسطيني هو الشراكة في كل شيء، وقد جسدت هذا التوجه في غرفة العمليات العسكرية المشتركة التي أظهرت إدارة جماعية لمواجهة الاحتلال، فأبدعت في طرق الرد على اعتداءاته المتكررة، وجددت آليات تثبيت معادلة الردع، وعملت على إفشال أهدافه الشيطانية أكثر من مرة، كما أثبتت "الوثيقة السياسية" التي أعلن عنها سنة 2017 التوجه ذاته، وعكست نُضجاً سياسياً واضحاً لفكر الحركة، إذ كرست نهجاً وحدوياً، وشراكة عملية. وقد تكون هذه القناعات جاءت بعد وقتٍ من التجربة والأداء، إلا أنها أصبحت فكراً جدياً، وحقيقةً واقعية، فحماس حركة شورية في قراراتها، وديموقراطية في التفاعل مع أفكارها، وكبيرة في عدد أفرادها، وذات بُعد تاريخي في وجودها، مما يجعل الوقت عاملاً مهماً في ترسيخ الأفكار التجديدية، وخصوصاً عندما تدرك أن المسائل السياسية لا تتحقق إلا عبر قناعات "جمعية"، ولو قرأت السيرة النبوية الشريفة، ودققت النظر في غزوة أُحُد لوجدت أن النبي ﷺ لم يكن يرغب في الخروج لقتال المشركين خارج المدينة، إلا أنه خرج انسجاماً وتوافقاً مع الرأي العام الذي يُفضل الخروج على الانتظار.

في الحقيقة هذه الأسباب، لا تدعنا نتجاهل كفاءة القيادات الفلسطينية وآليات صعودهم بشكل عام، فسيكولوجية الجماهير التي تطرب في كثير من الأحيان إلى صاحب الكلمات الرنانة أو الأفكار المتطرفة، قد تدفع ببعض الأشخاص نحو سدة القيادة دون وجه حق، وتجعل الموقف أكثر تعقيداً أمام الأفكار الجديدة التي تسعى نحو الشراكة الوطنية أو ما شابه ذلك، فآليات اختيار القيادة تُعد من أهم العوامل التي تُشكل قوة الموقف الفلسطيني وتطويره، لذلك وجب علينا إعادة النظر في اختيار الرجال ومعرفة قدراتهم المطلوبة، وهذا ما عبّر عنه النبي ﷺ عندما قال في حقّ عمرو بن العاص "ما كان لهذا الرجل إلا أن يكون أميراً"، وفي المقابل كان يصف أبو ذر رضي الله عنه بالضعف الذي لا يُؤهله إلى إدارة شؤون الناس.

وفي السياق ذاته، يكشف أبو مرزوق عن عوامل أُخرى تُسهم بشكلٍ أساسي في اختيار القيادة الفلسطينية، ويصف المسألة بأنها ليست مطلقة للشعب الفلسطيني أو لإرادة التنظيم الذي تنتمي إليه بعض الشخصيات، وساق مثالاً واضحاً فيما يتعلق باختيار الرجل الأول في فلسطين، وهو رئيس منظمة التحرير، ثم رئيس السلطة الفلسطينية، حيث تمّ اختيار أحمد الشقيري من قبل عبد الناصر بشكل خاص، وبعدها تم اختيار ياسر عرفات، أما أبو مازن فقد استطاع أن يفصل بين صلاحيات الرئيس، ورئاسة الوزراء بضغطٍ من جهات خارجية معروفة، ثم استطاع أن يستغل هذه الجهات ليكون خليفة لياسر عرفات.[20] ولكن عندما فازت حماس، وشكلت حكومتها تمّ إرجاع بعض الصلاحيات لرئيس السلطة، ونزعت الصلاحيات المالية، وتم إعادتها للصندوق القومي الفلسطيني، وبعدها تمّ حصار الحكومة بشكل كامل.

عودة إلى الحوار والمصالحة:

بعد فشل حوارات حركتي فتح وحماس سنة 2002 تجددت محطات الحوار الوطني في سنتي 2003 و2005 كما يذكر أبو مرزوق، إذ طرأت مستجدات كثيرة على الساحة الفلسطينية، كان أبرزها غياب رئيس السلطة الفلسطينية

[20] مقابلة للكاتب مع الدكتور موسى أبو مرزوق، تشرين الثاني/ نوفمبر 2018.

ياسر عرفات عن المشهد الفلسطيني، مما سبب حالة من الفراغ المؤسساتي والقانوني، دفع جميع الأطراف للتحلي بالمسؤولية الأخلاقية لإنقاذ المؤسسة الفلسطينية من الانهيار، فكانت الانتخابات البلدية والرئاسية سنة 2005، والانتخابات التشريعية سنة 2006 نتاجاً عملياً للحوارات الوطنية في القاهرة، وبيروت، وبقي ملف انضمام حماس لمنظمة التحرير عالقاً إلى يومنا هذا.

ثم انتقل المشهد الفلسطيني نحو حوارات المصالحة الفلسطينية، لأن حماس أحرزت فوزاً كبيراً في الانتخابات التشريعية، وشكلت على إثره حكومة منفردة بعد أن رفضت جميع الفصائل المشاركة في حكومة وحدة وطنية، وبعد سماع ضجيج المشكلات المفتعلة وغير المفتعلة، دعت أطراف عدة إلى ضرورة الوحدة الوطنية، وكان من بين الأصوات الجادة في ذلك دول عدة منها مصر والسعودية واليمن والسنغال، فقد كانت الأخيرة ترأس المؤتمر الإسلامي في حينه، فاستثمرت الفرصة، واستضافت حركتي فتح وحماس للمصالحة؛ ولأن وفد فتح لم يكن جدياً، انتهى اللقاء دون نتائج فعّالة، وخرج بيان لم يتعد الأسماع، وبقيت المشكلات تُرواح مكانها حتى جاءت الدعوة السعودية في 2007/2/5، التي لبتها الفصائل الفلسطينية بوجود شخصي من محمود عباس رئيس السلطات الثلاث، ومحمد دحلان وخالد سلام وآخرين، وخالد مشعل رئيس المكتب السياسي السابق لحماس، وإسماعيل هنية رئيس المكتب السياسي الحالي، ود. موسى أبو مرزوق رئيس المكتب السياسي الأول لحماس، لذلك خرج الفلسطينيون من بيت الله الحرام بعمرة تعبدية لله تعالى، وإعلان حكومة الوحدة الوطنية برئاسة إسماعيل هنية، غير أن الحلم الفلسطيني لم يستمر سوى ثلاثة أشهر فقط.

ولعلَّ أبرز العوامل التي أدت إلى فشل حكومة الوحدة الوطنية ما يلي:

أولاً: عدم وجود إجماع عربي حولها، وخصوصاً من جمهورية مصر العربية.

ثانياً: رفض الولايات المتحدة الأمريكية لفكرة حكومة فلسطينية تُشارك فيها حماس.

ثالثاً: عدم قناعة بعض الأطراف الفلسطينية بجدوى مشاركة حركة حماس في الحكم.

رابعاً: قرارات الرباعية الدولية Quartet بشأن الحصار المفروض على غزة، والتي اعترف توني بلير Tony Blair بخطئها.

خامساً: "إسرائيل" وضعت الكثير من العراقيل التي من شأنها أن تعزل المسؤولين، وأن تمول الموازنة.

منظمة التحرير الفلسطينية:

نشأت منظمة التحرير الفلسطينية على أن تتمثل فيها جميع التيارات والتنظيمات السياسية الفلسطينية، ولعل سنة 1968 شهدت تمثيل المنظمة الأوسع للشعب الفلسطيني، وتجاوزت بذلك مسألة التمثيل لتنحصر الإشكالية الرئيسية بين مكوناتها في الاتفاق على برنامج وطني موحد، وأن تشكل المؤتمر الوطني من فصائل المقاومة في غالبه هو ما قاد إلى هيمنة حركة فتح على المنظمة واستئثارها بها، وعلى هذا فإن موقف حركة حماس من منظمة التحرير الفلسطينية كان مترابطاً ومتداخلاً مع موقفها من حركة فتح والسلطة الفلسطينية، واتسمت العلاقة بالتنافسية، وكانت ترى فتح دائماً أن وجود حماس في المنظمة سيكون على حساب وزنها فيها، وسيُنهي احتكارها لها، وقد تعمق الخلاف مع اختلاف البرامج السياسية، واتجاه فتح نحو مسار التسوية في ظلّ رؤية حماس أن هذا المسار عبثي عديم الجدوى.

يقول أبو مرزوق:

بدأت علاقة حماس مع منظمة التحرير مبكرة، وذلك قبل العمل باسم حماس، فقد كان هناك حضورٌ متنوعٌ وبارزٌ للتيار الإسلامي عموماً، وخصوصاً أنه تيارٌ عجنته أحداث الاحتلال والمواجهات العربية وانعكاسها على مجمل الوضع الفلسطيني، وهذا يعني أن علاقة الاتجاه الإسلامي بمنظمة التحرير مرت بمحطات مختلفة، أبرزها ما يلي:[21]

[21] مراسلة للكاتب، غزة، مع الدكتور موسى أبو مرزوق، الدوحة، كانون الثاني/ يناير 2019.

شهدت مرحلة الثمانينيات موقفين بارزين جمعت الإسلاميين بمنظمة التحرير قبل انطلاق حماس، أول هذه المواقف كان عند تشكيل الهيئة التأسيسية للجامعة الإسلامية سنة 1978، وهذا بدأ مبكراً في نهاية السبعينيات حيث كان هناك خلاف حاد حول تبعية الجامعة ومن يُشرف على مجالسها وهيئاتها، وكان إصرار البعض في حركة فتح على السيطرة على الجامعة في مهدها. أدخلوا العنف لأول مرة في الجامعات الفلسطينية، وكما كان التدافع في الداخل، فقد كان كذلك في الخارج، وكان المخرج هو الشراكة، حيث تكونت الهيئة التأسيسية مناصفة، وكان يرأس فريق فتح الأخ أبو عمار، وكان يرأس الفريق الإسلامي الأخ د. خيري الأغا رحمه الله، وعند الاجتماع يرأس أبو عمار المجلس.

تألف فريق حركة فتح من أبو عمار، وأبو جهاد خليل الوزير، وحسني زعرب وغيرهم، وكان من الإسلاميين د. خيري الأغا، ود. إسحاق الفرحان، ود. قنديل شبير، وعبد الرحمن الحوراني، ود. أمين الأغا، وأحمد عبد المجيد، وأبو بشير الزميلي، ود. موسى أبو مرزوق، وبعد فترة انسحبت فتح من المجلس، وعلى الأرض فصلت جامعة الأزهر عن الجامعة الإسلامية، وانفصل المجلسان في الداخل والخارج ولم نعد نلتقي، وكان هذا الانفصال فيه فائدة للجامعتين، إذ لم يعد تنازع داخل المؤسسة الواحدة.

الموقف الثاني هو تعيين ثلاثة محسوبين على التيار الإسلامي في المجلس الوطني الفلسطيني بترشيح من د. خيري الأغا سنة 1988؛ وهم عبد الرحمن الحوراني، وجمال عايش، ود. أمين الأغا، وكان عرفات كثيراً ما يذكر أننا ممثلون في المجلس الوطني، والحقيقة أن د. خيري الأغا رحمه الله سمى هذه الأسماء الثلاثة للأخ أبو عمار رحمه الله، وأضافهم للمجلس، ولكن هذا القرار كان فردياً، ولم تكن أي جهة رسمية في حركة الإخوان الفلسطينيين تعلم بذلك، ولم يكن موقفاً حقيقياً في تلك المرحلة؛ لأننا لا نعلم حقيقة ما الذي حدث، وكنا نُكذب الأخ أبو عمار ولا نُصدقه، ولم نسأل الأغا عن روايته في هذا الموضوع أبداً.

منذ تأسيس حركة حماس وانطلاقها بشكل فاعل في المشهد الفلسطيني سنة 1987، تلقت دعوات عديدة من جهات مختلفة؛ لبلورة موقف إيجابي تجاه

منظمة التحرير الفلسطينية، ولأن حماس لديها بعض التحفظات تجاه مواقف المنظمة ونظامها الأساسي، الذي كان نظام الكوتات معياراً له، لذلك كان الرفض جواباً لأغلب المبادرات التي قدمت لها.

تلقت حماس دعوات كثيرة بخصوص موضوع منظمة التحرير، منها دعوة الرئيس اليمني علي عبد الله صالح. التقينا مع حركة فتح في 1990/8/10، واستمرت اللقاءات لمدة ثلاثة أيام بحضور ياسر عرفات ممثلاً عن حركة فتح، برفقة أكرم هنية مستشاره السابق، وفؤاد الشوبكي المسؤول المالي للحركة، والسفير الفلسطيني في اليمن وآخرين، وحضر عن حركة حماس د. خيري الأغا، ود. عبد الرحمن بارود، والمهندس إبراهيم غوشة، ود. موسى أبو مرزوق وآخرون، وفي هذا اللقاء كان هناك ضغطٌ كبيرٌ علينا للاعتراف بالمنظمة كممثل شرعي، وكان أحد أهم أسباب اللقاء بالنسبة لنا هو أن معتقلي الحركة في سجون الاحتلال آنذاك يتعرضون للأذى من معتقلي حركة فتح، لا سيّما وأن أبناء حماس كانوا أقلية، وأرادت فتح أنْ تنتزع من الحركة اعترافاً بمنظمة التحرير الفلسطينية تحت الضغط، وبعد أخذ ورد فشل الاجتماع من تحقيق أيٍّ من أهداف الطرفين، لكن توصلنا لاحقاً لاتفاق شرف في 1990/9/21 يقضي بتنسيق الجهود في مواجهة العدو، وتعزيز الوحدة الفلسطينية.

كان الموقف الثاني أيضاً في سنة 1990، حيث وجه الشيخ عبد الحميد السائح رئيس المجلس الوطني الفلسطيني آنذاك دعوة رسمية لحركة حماس للمشاركة في أعمال اللجنة التحضيرية للمجلس الوطني، وكان رأي مجمل الإخوة الإصرار على الاحتكام للصندوق، وكان رفض المشاركة سيد الموقف، وقُدمت مذكرة باسم حركة حماس للشيخ السائح في 1990/4/6، تؤكد فيها أن الوسيلة الأساسية المعتمدة لاختيار أعضاء المجلس الوطني يجب أن تكون بالانتخاب وليس بالتعيين، وفي حال تعذر ذلك أن يكون المجلس يعكس الوزن الحقيقي للفصائل الفلسطينية مع ضرورة تعديل الميثاق الوطني الفلسطيني؛ لينسجم مع التراث الإسلامي الأصيل لشعبنا، ووضعنا شروطاً عدة للمشاركة في المجلس الوطني، وهي كالآتي:

1. فلسطين من البحر إلى النهر، ومن النقب إلى رأس الناقورة دون تجزئة.
2. رفض التفريط بأي جزء من فلسطين.
3. التأكيد على الكفاح المسلح، واعتبار الجهاد الطريق الصحيح لتحرير فلسطين.
4. رفض الاعتراف بالكيان الصهيوني.
5. فلسطين قضية الأمة العربية والإسلامية جميعاً.
6. التراجع عن كافة التنازلات والاعترافات التي تتناقض مع حقّ الشعب الفلسطيني.
7. أن يكون الانتخاب أساساً لاختيار أعضاء المجلس الوطني، وإن رُفض ذلك فلا بدّ أن يكون لحماس تواجد يُناسب حجمها وثقلها الذي يتراوح بين 40–50% من مجموع أعضاء المجلس.

ولعل موقف الحركة في ذلك الوقت كما يُسجل أبو مرزوق لم يكن ناضجاً بما فيه الكفاية للتعامل مع العرض للدخول في المجلس الوطني، خصوصاً أن العرب كانوا منقسمين حول المنظمة ومستقبلها والموقف منها.

وفي الدورة العشرين للمجلس الوطني التي انعقدت في أيلول/ سبتمبر 1991 طُلب من حركة حماس أن تُسمي ممثلاً عنها لحضور اجتماعات اللجنة التحضيرية، فأرسلنا رسالة في أيار/ مايو 1991 بالاعتذار عن الحضور مع تأكيدنا مجدداً على أن الانتخابات هي الطريقة المعتمدة لاختيار أعضاء المجلس الوطني وليس التعيين.

وتلى ذلك دعوة كريمة من الرئيس السوداني عمر البشير لحركتي فتح وحماس إلى قصره الجمهوري في الخرطوم في شهر آب/ أغسطس 1991، وتطرق اللقاء إلى قضايا عدة، منها منظمة التحرير، وكان وفد الحركة برئاسة المهندس إبراهيم غوشة ووفد حركة فتح برئاسة ياسر عرفات، وأهم ما دار في اللقاء محاولة فتح إشراك حماس في المجلس الوطني، مع العلم أن حدثين مهمين سبقا هذا اللقاء، الأول مؤتمر مدريد الذي عُقد في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر 1991، والحدث الثاني، تأسيس أول تشكيل جبهوي عريض "الفصائل العشرة"، وسبق الحديث عنه.

لم تتوقف الجهود السودانية في هذا الإطار، حيث دعا حسن الترابي رحمه الله بعد عام ونصف حركتي فتح وحماس في 1993/1/3 وتشكل وفد الحركة برئاسة د. موسى أبو مرزوق، وعضوية المهندس إبراهيم غوشة، والمهندس عماد العلمي، ود. محمد صيام، ود. محمد أحمد عبد الله، في حين ترأس ياسر عرفات وفد فتح وعضوية كلٍ من سليم الزعنون، ونصر يوسف، وعبد المنعم أبو سردانة، وعبد العزيز شاهين، وكان عضواً في المجلس الثوري، وعمر شلايل السفير الفلسطيني في الخرطوم، والعميد صائب العاجز وكان قائداً للساحة السودانية في حركة فتح، ومحمد دحلان عن لجنة غزة في فتح، وأراد أبو عمار الانسحاب من اللقاء بعد احتدام النقاش بين الطرفين، إلا أن الترابي رحمه الله طلب منه العودة للاجتماع، إذ كانت نقاط الخلاف في البداية شكلية ثم أصبحت سياسية.

في لقاء الخرطوم في كانون الثاني/ يناير 1993، برزت بعض القضايا الخلافية بيننا وبين وفد حركة فتح، أول هذه القضايا هي حضور أبو علي شاهين ضمن وفد حركة فتح، حيث إنه متهم بقتل د. الخطيب أستاذ اللغة العربية في الجامعة الإسلامية، ومتزوج من امرأة سودانية فاضلة، وتم تجاوز ذلك؛ لأن كل وفد له أن يحدد أعضاء وفده بمعزل عن الطرف الآخر، وهذا حقّ متبادل وليس مجالاً للتجاذب.

القضية الثانية كانت في ترتيب الجلوس، حيث رتب المضيف السوداني الجلسات بحيث وفد فتح على يسار المنصة، ووفد حماس على يمين المنصة، ويجلس على المنصة د. الترابي والفريق السوداني المساعد، وهنا ثارت ثائرة أبي عمار رحمه الله، حيث رفض الجلوس في رئاسة وفد فتح أمام رئاسة وفد حماس د. موسى أبو مرزوق، وأنه رئيس دولة فلسطين، ورئيس م.ت.ف، ولا يجوز أن يجلس بصفة رئيس حركة فتح، وتم حل القضية، وجلس أبو عمار على المنصة بجوار د. حسن الترابي، ورأس أبو الأديب وفد حركة فتح في مقابل رئاسة حركة حماس د. موسى أبو مرزوق.

القضية الثالثة كانت قضية جمع الأموال، والتي أثارها الأخ أبو عمار بدون مقدمات، لأن نقطة القوة التي تتمتع بها حماس هي "استقلالها المالي"، وأن أبو عمار يستخدم المال لتطويع جميع الفصائل الفلسطينية، وهنا هاجم بقوة دول الخليج لكون حماس تجمع الأموال منها، وخصوصاً السعودية، وكان جوابنا أن دول الخليج تدفع لكم ولا تدفع لنا، وأن المال لا يُؤثر في قرارنا السياسي أبداً.

القضية الرابعة كانت قضية الدخول في منظمة التحرير، إذ كان هناك جدل كبير حول ذلك، ووعدنا أن نُقدم مذكرة حول هذا الموضوع، لأننا نرفض نظام الكوتات، ورفضنا وعدهم الذي يقضي أن نكون التنظيم الثاني بعد فتح، أي بقرار منهم، لأنَّ الذي يُعطي يمنع، ونحن متمسكون بالانتخابات كوسيلة لترسيم العضوية، وأن اعترافنا بمنظمة التحرير كممثل وحيد للشعب الفلسطيني مشروط بدخولنا فيها، وللحقيقة وقف الترابي مع رأي الحركة قائلاً: "يا زول كيف تريد منهم الاعتراف قبل الدخول، وهل يمكن أن يلغوا أنفسهم ومن يمثلون" ولم نصل إلى اتفاق حول هذه القضية.

القضية الخامسة كانت قضية هل كنا ممثلين سابقاً في منظمة التحرير أم لا؟ وأبدينا رأينا بعدم وجود تمثيل لنا في أي دورة، وهذه النقطة كانت محل لبس، وتمّ شرحها سابقاً.

القضية السادسة كانت قضية توقيع ما تمّ التوصل إليه من نقاط مشتركة وتفاهم، وكانت نقاط جيدة وممتازة، ولكن ليس من بينها اعترافنا بمنظمة التحرير كممثل وحيد للشعب الفلسطيني، مما جعل أبا عمار يغادر الخرطوم مصطحباً أبا الأديب، لأنه لا يريد من اللقاء غير هذا، تاركاً المؤتمر الصحفي والتوقيع على الوثيقة، وترك بقية وفد فتح ووفد حماس والمضيف السوداني في حيرة كبيرة.

وهنا أنقذ الموقف نصر يوسف عضو اللجنة المركزية لحركة فتح، فقد وقع نيابة عن أبي عمار وأبو الأديب كرئيس لوفد حركة فتح، ووقع د. موسى أبو مرزوق عن حركة حماس وأعلنت الوثيقة، وفي الوقت نفسه أجرى الأخ أبو عمار رحمه الله مؤتمراً صحفياً في القاهرة، وهاجم حماس بأشد العبارات، وأضاع فرصة عظيمة لوحدة الموقف الفلسطيني.

ولعل في ذلك الخير لشعبنا الفلسطيني، حيث كان الغرض هو الاعتراف بالمنظمة، والمنظمة كانت تفاوض "إسرائيل" سراً دون علم أحد، حتى أعضاء فتح في اللجنة المركزية لم يعلموا في أوسلو، يومها قلتُ وبالحرف الواحد وللتاريخ، ولم أكن أعلم ما يجري في الخفاء، مخاطباً أبا عمار رحمه الله:

> لا أحد ينتظر دولياً وعربياً من حماس هذا الاعتراف، ونعتقد أنَّ هذا الشرط ليس مطلوباً، أما من حيث السياسة فلا ندعي أننا بديل، ولن نطرح أنفسنا بديلاً، ولا علاقة لهذه الجملة بدخولنا للمنظمة، لكننا نعتقد أن مصلحة الشعب الفلسطيني ألا نذكر الجملة (أي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني)؛ لأن الخط السياسي، والحراك السياسي للمنظمة سيُفضي إلى توقيع اتفاقية إذعان، والشعب الفلسطيني يرفض هذه الاتفاقيات، فاتركوا لنا الحرية حتى يبقى هناك إطار بديل عندما تنهار المنظمة إذا وافقتم على أيّ حلّ.

ثم تابعتُ أن الظروف الدولية قد تقهر المنظمة ومصلحة الشعب الفلسطيني، ومن الحكمة أن يظل هناك فصيل يُحافظ على حقوق الشعب الفلسطيني، ويُعدُّ متنفساً له.

وفي محطة أخرى ترأستُ وفداً قيادياً من الحركة وتوجهنا إلى تونس للقاء أبي عمار في كانون الأول/ ديسمبر 1992، وذلك للاستفادة من إمكانيات منظمة التحرير للضغط باتجاه عودة المبعدين في مرج الزهور إلى ديارهم، استمرت اللقاءات ثلاثة أيام، ودار مجدداً النقاش حول اعتراف حماس بمنظمة التحرير، وانتهت اللقاءات دون أن نصل إلى نتيجة.

مرج الزهور:

وبما أننا تطرقنا إلى إبعاد مرج الزهور فلا بدّ أن نُسجل شهادة أبو مرزوق للتاريخ فيما يخصهم:

لقد شكل إبعاد مرج الزهور لحماس بُعداً دولياً، حيث كانت الحركة حتى تلك اللحظة بعيدة عن المسرح الدولي في علاقاتها، وحتى معرفة المجتمع الدولي بها لم يكن حاضراً، فلما أبعدت "إسرائيل" 417 من الفلسطينيين في سابقة لم تكن قد

حدثت من قبل، انتبه الجميع لحركة حماس، وأصبحت تحركاتها في مرج الزهور أمام الشعب والإقليم والمجتمع الدولي، لذا تحركتُ فور سماعي خبر إبعادهم، والتقيتُ بإخواني في الدائرة السياسية، ووضعنا تصوراً للحركة المستقبلية، وسافرتُ صباحاً، والتقيتُ قيادة الحركة، واتخذتُ عدة قرارات، حددت مسارات العمل في قضية الإبعاد، وهي كما يلي:

1. بخصوص المبعدين أنفسهم، عليهم البقاء على الحدود، وعدم الذوبان في المجتمع اللبناني، والاتصال بالحكومة اللبنانية لإبلاغها بقرارنا، وبالتالي تمّ تزويدهم بالخيام والطعام والمعدات اللازمة وغيرها، خصوصاً أن فصل الشتاء كان قارساً لا يُطاق، وتم عمل تصور تنظيمي داخلي لهم من حيث المسؤول العام، والمسؤول الإعلامي، وبقية اللجان وغيرها من مستلزمات إدارية، واتصالات داخلية (مع ذويهم) وخارجية (مع المجتمع الدولي).
2. جهود متعلقة بالأعمال القيادية المنوطة بهم، حيث تمّ إرسال بعض الإخوة للمساعدة في ترتيب الأوضاع في الداخل؛ لأن الإخوة الـ 417 مبعداً كانوا مسؤولي مؤسسات خيرية أو اجتماعية أو أساتذة جامعات، مما يستوجب ملء الفراغ الذي تركوه في أرض الوطن.
3. الاتصال بالكتاب والصحفيين والإعلاميين والأحزاب العربية والجماعات الإسلامية، وحث الجميع نحو اللقاء بالمبعدين وزيارتهم، لإحياء قضية المبعدين على المستوى الشعبي، وجعلها القضية الأولى لدى جماهير شعبنا الفلسطيني، والأمة العربية والإسلامية.
4. تمّ ترتيب لقاءات مع الإخوة في الفصائل الفلسطينية في دمشق، وطلب جهدهم في هذا الحدث، وقاموا بالواجب وخصوصاً الأخوة في الجبهة الشعبية – القيادة العامة، حيث زودت المبعدين بالكثير من المستلزمات.
5. الاتصال بالسوريين، حيث تمّ تعيين د. محمد سليمان وزير الإعلام السوري من قبل المؤسسة الرسمية؛ للتنسيق معنا، وبذل ما في وسعه لمساعدتنا في خدمة المبعدين.

6. الاتصال بمنظمة التحرير الفلسطينية، وجرت عدة لقاءات في تونس والخرطوم وعمَّان للتعامل مع الأمم المتحدة والمجتمع الدولي والمحافل الدولية، وقد تطرقنا لهذه اللقاءات.
7. اتصالات مع الدول العربية والإسلامية، للتعريف بقضية المبعدين، وتفعيل قضيتهم في المحافل الدولية، لا سيّما في إلغاء قضية الإبعاد، وعودة المبعدين أنفسهم وبالإضافة إلى تعميق الصلة بالحركة.
8. وللحقيقة أن الإيرانيين هم من بادر بالاتصال بالإخوة المبعدين، لتقديم يد العون لهم ومساعدتهم، حيث لم تكن الحركة لها علاقة قوية مع إيران في ذلك الوقت، ولكن مع مرور الزمن ترسخت العلاقة، وزاد التواصل، وتعززت الثقة وخصوصاً أن من كان يتصل بالمبعدين هم الحرس الثوري الإيراني، في حين كانت علاقاتنا في ذلك الوقت مع الخارجية الإيرانية.[22]

من ناحية أخرى، كان قرار حماس بعدم دخول المنظمة أو الاعتراف بها كممثل شرعي ووحيد، ومنذ ذلك الحين وموقف الحركة تجاه منظمة التحرير لم يتغير حتى آذار/ مارس 2005، حيث تمّ تشكيل وفد قيادي برئاسة خالد مشعل وعضوية عماد العلمي ومحمد نصر.

كما حضر اللقاء محمود عباس أبو مازن وفريقه، وجميع الفصائل الفلسطينية في دمشق ورام الله، وكانت مخرجات اللقاء اعتراف حماس بمنظمة التحرير كممثل شرعي ووحيد، وتشكيل لجنة لتطوير وإعادة بناء المنظمة برئاسة أبي مازن وهو الذي يدعو لانعقادها، وكان ضمن البيان الختامي "وافق المجتمعون على تفعيل وتطوير منظمة التحرير الفلسطينية، وفق أسس يتم التراضي عليها، بحيث تضم جميع القوى والفصائل الفلسطينية، بصفة المنظمة الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني".[23]

[22] مراسلة للكاتب مع الدكتور موسى أبو مرزوق، كانون الثاني/ يناير 2019.

[23] مراسلة للكاتب مع الدكتور موسى أبو مرزوق، كانون الثاني/ يناير 2019.

وكان اعتراض أبو مرزوق على هذا الاتفاق متمثلاً بنقطتين أساسيتين؛ الأولى أن الاعتراف بالمنظمة كممثل شرعي ووحيد قبل الدخول فيها يُفقد حماس التمثيل، ويُلغي وجودها نيابة عن جزء معتبر من الشعب الفلسطيني، والنقطة الثانية هي أن اجتماع اللجنة كان بيد أبي مازن فقط، وكان ذلك كفيلاً بتعطيل اجتماع اللجنة على الرغم من أن فتح أكبر المكونات عدداً في اللجنة، وعليه فقد اعترفت حماس بالمنظمة ولم تدخلها إلى الآن، ووعدت فتح بعقد اللجنة ولم تجتمع حتى اليوم.

وبحسب أبو مرزوق: "بعد انتخابات 2006 وصعود حماس لقبة البرلمان الفلسطيني، دخل أعضاء المجلس التشريعي بشكل طبيعي في المجلس الوطني، إلا أن أبو مازن فضّ أي اجتماع للجنة تطوير المنظمة، بالرغم من أن تطويرها منصوص عليه في اتفاقية المصالحة، واعتبرناها إطاراً قيادياً مؤقتاً، وأضفنا لها مهمة الشأن السياسي حتى إجراء الانتخابات، ولكن أبا مازن لم يدعُ هذه اللجنة إلا مرة واحدة أو مرتين، وحضر ساعة أو ساعتين ثم غادر".

ومن المحطات المهمة في هذا الإطار اتفاق القاهرة سنة 2011 والذي تشكلت على إثره لجنة المنظمة، وكان مناطاً بها المهام التالية:

1. الاتفاق على تطوير وتفعيل منظمة التحرير الفلسطينية وفق أسس يتم التراضي عليها، بحيث تضم جميع القوى والفصائل الفلسطينية، وفقاً لاتفاق القاهرة آذار/ مارس 2005.
2. ترسيخ مكانة منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني في أماكن تواجده كافة، بما يُعزز قدرة المنظمة على القيام بمسؤولياتها.
3. انتخاب مجلس وطني جديد، وفق مبدأ التمثيل النسبي الكامل، وبقانون يتفق عليه، وبالتوافق في المواقع التي يتعذر فيها إجراء الانتخابات، على أن تنتهي انتخابات المجلس الوطني بشكل متزامن مع انتخابات المجلس التشريعي، وبما لا يتجاوز عام من توقيع الاتفاق.

4. الاتفاق على قيام اللجنة المكلفة بتطوير منظمة التحرير حسب إعلان القاهرة 2005 باستكمال تشكيلها كإطار قيادي مؤقت، لحين انتخاب المجلس الوطني الجديد، مع التأكيد على صلاحيات اللجنة التنفيذية وسائر مؤسسات المنظمة....

هذه أبرز المحطات التي جمعت حركة حماس بحركة فتح حول الاعتراف بمنظمة التحرير كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني، وبالرغم من اعتراف حركة حماس بمنظمة التحرير سنة 2005 دون الدخول رسمياً في مؤسساتها، وبالرغم من فوز حماس بانتخابات 2006، إلا أن منظمة التحرير ما زالت بحاجة إلى إصلاح داخلي على أساس من الديموقراطية الانتخابية، والشراكة الوطنية الحقيقية.

ثامناً: العدالة الغائبة:

"إنَّ التناقض واضح في سياسات الحكومة الأمريكية، من مناضلي الحرية الثوريين الأوروبيين الغربيين الذين يُقاتلون من أجل تحرير شعوبهم، وبين موقفها من مناضلي الحرية الشرقيين أو الشرق أوسطيين، أو الملونين أو غير الإنجليز أو غير الإيرلنديين أو غير الألمان أو غير اليهود"

(المحامي الأمريكي ستانلي كوهين)

في 2001/9/11 تعرضت الولايات المتحدة الأمريكية لهجوم على برجي مركز التجارة العالمي بمدينة نيويورك، وخلّف الهجوم من الضحايا ما زاد عن ألفَيْ شخص، وقد أعلن تنظيم القاعدة بقيادة أسامة بن لادن مسؤوليته المباشرة عن العملية، وتوعد أمريكا وحلفاءها بمزيد من العمليات التي ستخترق منظومتهم الأمنية؛ مبرراً ذلك بالأعمال العدائية، والتجاوزات الإجرامية التي يقومون بها تجاه الإسلام والمسلمين في أفغانستان، وفلسطين، وغيرها.

أدان هذه الحادثة معظم علماء المسلمين، واستنكرها أغلب العاملين في الحقل الإسلامي... ومع ذلك استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة جورج بوش الابن George W. Bush هذه الحادثة لتنفيذ أجندتها في المنطقة العربية والإسلامية، بخلفيات يمينية ودينية وبعقلية المحافظين الجدد، فقامت باحتلال أفغانستان والعراق، وأصبحت أكثر تماهياً مع المشروع الصهيوني. يقول الأمير بندر بن سلطان في هذا السياق:

> لم تكن هجمات الحادي عشر من سبتمبر الشيء الوحيد الذي قاد إلى التشكيك في الإسلام في وسائل الإعلام، وما صاحب ذلك من تمثيل متضارب ومسيئ في الغالب، بل ما نتج عنها من حرب على الإرهاب أيضاً، فقد صرح مدير الأبحاث في مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية بصراحة: تجري مساواة الحرب على الإرهاب بالحرب على الإسلام، وقد أوجز نيل بوش [Neil Bush][24] بيأس مأزق العلاقات العامة السعودية سنة 2002 عندما قال: ينظر الرأي العام الأمريكي إلى العرب كإرهابيين وكرجال صحراء، وأرجو أن يرى الأمريكيون العرب والمسلمين كما أراهم، العرب يخسرون معركة العلاقات العامة في أمريكا، والرأي العام يصيغ السياسة العامة دراماتيكياً، وينطبق ذلك على الولايات المتحدة، وعلى هذا الجزء من العالم وعلى كل مكان.[25]

يقول أبو مرزوق عن هجمات أيلول/ سبتمبر:

بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، أصبحت أمريكا تُمسك بعناصر القوة وحدها، فصدرت كتابات عدة عن صراع الحضارات، وعن العدو المستقبلي الذي يُمكن أن تنشغل الدنيا بصراعه، والارتكاز عليه في تمرير الأهداف الكبرى، وفعلاً أوجدت أمريكا لنفسها عدواً وهمياً وهو الإسلام، والحركات الإسلامية، مثل تنظيم القاعدة (بن لادن)، وحركة حماس والجهاد الإسلامي في فلسطين، وقالت للعالم

---

[24] نيل بوش هو الأخ الأصغر للرئيس جورج بوش الابن، وهو رجل أعمال مقره تكساس.

[25] انظر: وليام سيمبسون، **الأمير: القصة السرية للأمير الأكثر إثارة للاهتمام في العالم الأمير بندر بن سلطان**، ترجمة عمر سعيد الأيوبي (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010)، ص 379 و381.

إن هؤلاء هم الأعداء، ثم بدأت تُبلور سياسات محددة تجاه كل هذه الأطراف، بعد أن وضعتهم على قائمة "الإرهاب" الدولي. ولك أن ترى بعدها كيف يُفسر القوي القانون على هواه، فالقانون أصم إذا فسره القوي تفسيراً، وفسرته البشرية تفسيراً آخر؛ لأن ما يقوله القوي هو الذي سيسمعه العالم، وهذا الذي حصل، فأمريكا صارت تضع على أجندة العالم أشياء حسب تفسيرها للوقائع التي تخدم مصالحها، لكن النقطة الفارقة في هذا الموضوع هو الانتقال من الجانب النظري لهذا التفسير إلى التطبيق العملي، فبعد حادثة 11 أيلول/ سبتمبر، كنتُ جالساً في المكتب برفقة بعض ممثلي الفصائل الفلسطينية، فدخل الشباب بقطع الحلوى ابتهاجاً بما حصل في أمريكا، حينها قلتُ لهم هذه لحظة فارقة في تاريخ العمل الإسلامي وفي أمريكا وتاريخ المنطقة، فالأمر ليس كما تتصورون، المستقبل سيكون شديداً جداً على العرب والمسلمين وقد كان، فقد قُلب الأمر رأساً على عقب، وتم وضع قوانين جديدة، وأنشأوا هيئة جديدة للتنسيق بين الأجهزة الأمنية، وصار العدو الرئيس داخل أمريكا هي الحركات الإسلامية، عوضاً عن القاعدة مثل حركة حماس والفلسطينيين المرتبطين بها، لا سيّما وأن لديهم معلومات كاملة عن الملف الفلسطيني، وذلك من خلال محاكمتي خلال الفترة 1995–1997. بالتأكيد ذهبوا إلى جميع الأوراق، من اتصل هنا؟ ومن اتصل هناك؟ ومن له علاقة بهيئة الأراضي المقدسة، فاستهدفوا العامودي، واستهدفو أحمد يوسف، وبوشناق، وجميع الهيئات، استدعوا جميع العاملين وجرموهم بتهم زائفة، هذا في أمريكا فما بالك بما حصل خارجها، لقد احتلت أفغانستان، واحتل العراق.

إن القضية الفلسطينية حاضنتها الأمة العربية والإسلامية، وفي ظلّ ما حدث من تحييد أمريكا والجهات التي تعمل معها، وتحييد العراق وأفغانستان وباكستان، وفي ظلّ القوانين الجائرة، والهيمنة الأمريكية على دول الخليج، بلا شكّ تأثرت المنطقة تأثراً سلبياً، وأصبح للأمة العربية موقفان تجاه السياسات الأمريكية في المنطقة؛ الأول يؤيد هذه الإجراءات ويدعمها، والآخر يرفضها ويعمل على إفشالها، وانظر بعدها ماذا يمكن أن يحصل حين يتفتت الموقف العربي بسبب المواقف الأمريكية، وبسبب تتبع هذه المواقف.

أعتقد أن ما حدث في 11 أيلول/ سبتمبر شكّل معضلة كبيرة لقضايا الأمة العربية والإسلامية، ودفع بالجميع نحو الخيارات الأقل نفعاً، وخصوصاً أنك ستصبح أكثر حذراً في التعامل مع الدول العظمى، بمعنى أنك إذا أردت أن تتعامل معها، يلزمك أن تتعرف على الطرق والوسائل التي تمكنك من تحقيق ذلك دون أن تتعرض إلى قدمها فتدوسك دون أن تشعر، وهذا يشبه الفيل عندما يدوس قطاً أو ذئباً، هل يشعر الفيل بما حصل أسفل عضلاته المترامية في جميع الاتجاهات، بالتالي يلزمنا أن ندرك كيف أن نتعامل ونواجه الفيل المسيطر على العالم من خلال الاقتصاد، والأسلحة الفتاكة، والتحالفات الممتدة في 141 دولة، وفي كل دولة منها لها تواجد عسكري.

بالتأكيد أمريكا لها تواجد عسكري على سواحل معظم دول العالم، بإمكانك الآن أن تبحث من خلال الإنترنت عن الأماكن المتواجدة فيها السفن البحرية الأمريكية، ستجدها متمركزة في بحر الصين على شواطئ روسيا الشرقية، وفي جزر البهاما، وفي البحر المتوسط، والمحيط الهندي، وبالتالي تستطيع أمريكا أن تُرسل كماً هائلاً من اللهب لأي مكان تريده دون أي مشكلة، وقد رأينا هذا المشهد في أثناء احتلال العراق، فقد انطلقت الصواريخ من البحر الأحمر، وصواريخ من البحر المتوسط، وأخرى من إسبانيا، وثانية من المحيط الهندي، وأقلعت طائرات حربية من بريطانيا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لذلك إذا أردت أن تقاتل عدواً وجب عليك أن تعرف كيف تقاتله؟ ومتى يمكن أن تتقدم أو تتأخر، فالأمور لا تأتي بضربة عشوائية تكون سبباً في قتلك... .[26]

[26] مقابلة مركز التأريخ والتوثيق الفلسطيني مع الدكتور موسى أبو مرزوق، تشرين الأول/ أكتوبر 2012. (بتصرف)

Dr. Musa Abu Marzuq: In Depth
A Reading in Activism and Political Thought

هذا الكتاب

للمذكرات قيمة علمية كبيرة في الدراسات التاريخية والسياسية، وهي عادة ما تغطي جوانب مهمة لا تغطيها المصادر والمراجع المعتادة. فهي تسلط الضوء على خلفيات المواقف السياسية والقرارات، وتوفر معلومات مهمة لفهم بيئة الحدث، وتكشف طبائع الأشخاص، وتأثير العلاقات الإنسانية في حركة التاريخ، وتُفسر الكثير من المواقف الرسمية، وما يحدث خلف الكواليس. وهو ما يُعبِّر عنه هذا الكتاب بشكل تام.

يتضمن هذا الكتاب مشوار حياة د. موسى أبو مرزوق، أول رئيس للمكتب السياسي لحركة حماس، وأحد أبرز مؤسسيها وقيادييها، من حيث الرؤية والمواقف السياسية، والمسيرة النضالية الوطنية بتشعباتها الفلسطينية والعربية والإسلامية والدولية خلال الفترة 1997-2017.

وتُشكِّل هذه المذكرات إضافة نوعية ليس فقط لتجربة حركة حماس، التي جمعت بين صلابة المحافظة على الثوابت ومرونة العلاقات السياسية، وانفتاحها على القوى المختلفة، وفكرها الإسلامي الوسطي المعتدل، وإنما لتاريخ فلسطين الحديث والمعاصر، لما تتضمنه المذكرات من تفصيلات حول الأوضاع الداخلية الفلسطينية، والصراع مع العدو الصهيوني، والعلاقات والمواقف العربية والإسلامية والدولية.

هذا الكتاب يعرض الجزء الثاني من مذكرات د. أبو مرزوق، والتي كان جزؤها الأول بعنوان "ذكرياتُ اللجوءِ والغُربةِ وسنواتُ النضالِ 1951-1997".

ISBN 978-9953-572-97-0
9 789953 572970

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات
Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations
ص.ب.: 5034-14 بيروت - لبنان
تلفون: 644 803 1 961+ | تلفاكس: 643 803 1 961+
info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت